الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية أصول الدين و الشريعة
والحضارة الإسلامية
قسم العقيدة و مقارنة الأديان

رقم التسجيل :.....
الرقم التسلسلي:.....

الاضطهاد الديني المسيحي للمسلمين
(محاكم التفتيش نموذجا)

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير
شعبة مقارنة الأديان

إعداد الطالب(ة):فجور عنتر

إشراف.د.محمد بوالروايح

لجنة المناقشة

اللجنة	الاسم واللقب	الجامعة الأصلية
الرئيس	كمال معـــزي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
المقرر	محمد بوالروايح	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
المناقش الأول	عبد القادر بخوش	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
المناقش الثاني	لمير طيبـــات	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السنة الجامعية : 2006-2007

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى الذين ربياني وأحاطاني وغمراني بحنانيهما :

أبي وأمّي

وإلى أصدقائي الأوفياء

وإلى عمّال مكتبة أحمد عروة ، جامعة الأمير عبد القادر أخص منهم

بالذكر هيكل وإبراهيم وعبد العزيز وعمّي مختار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

الحمد لله أوّلا وآخرا

ثمّ شكري وامتناني للأستاذ الدكتور محمد بوالروايح المشرف على هذه الرسالة ، على ما أسداه إليّ من نصح وإرشاد وتقويم .

وكذلك لكلّ من له فضل عليّ من قريب أو بعيد في تكويني وصقلي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُقَدِّمَة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أهمية الموضوع :

تمثل المأساة التي عاشتها الأمة الأندلسية ؛من أكبر المآسي الإنسانية التي عرفتها على الإطلاق . وهذا بسبب الاضطهاد العظيم الذي سلط على الموريسكيين[1] من طرف الكنيسة لمدة زمنية طويلة . حيث إنها تفننت في تعذبيهم و قتلهم .وأوجدت لذلك محكمة التفتيش ، وهي محكمة لم ير التاريخ لها مثيلا ، حيث كان شعارها القسوة التي لا رحمة فيها ،والاضطهاد الذي لا هوادة فيه .يشرف على هذه المحاكم رجال دين كانوا يرون أن هذه الجرائم تقربهم إلى الله تعالى و لهذا وجدنا أن أكثر هم تقوة أكثرهم إجراما و تقتيلا .

إشكالية البحث :

تدور إشكالية البحث عموما حول الإجابة على السؤال الآتي : هل المسيحية نظريا وواقعيا دين محبّة وسلام ؟.

ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة أخر وهي :

- هل التسامح حثت عليه الديانة المسيحية ؟ .
- هل ما كتب عن جرائم محاكم التفتيش في الأندلس ضد المورسكيين حقيقة تاريخية لا شك فيها أم هو مجرد مبالغة من المؤرخين ؟ .

[1] الموريسكيون هي التسمية التي أطلقها الإسبان على مسلمي إسبانيا، بعدخروج العرب منها . وتعني بالعربية : المسلمون الصغار

أسباب اختيار الموضوع

إن أكبر الأسباب التي دفعتني وحفزتني إلى بحث ودراسة هذا الموضوع تكمن فيما يلي :

- الرّغبة في دراسة تاريخ الموريسكيين بعد سقوط غرناطة ، وما عانوه من اضطهاد على يد محاكم التفتيش ، وهو أمر لطالما استفزّ فضولي العلمي .

- التعرف والإطلاع على موقف ونظرة المسيحية إلى الأديان الأخرى ؛ خاصة الدين الإسلامي ، ليكون أداة في يد كلّ مسلم يرد به علىكلّ من يزعم أنّ الإسلام دين إرهاب .

أهداف الدراسة :

أهدف من خلال بحثي في هذا الموضوع ، إلى تحقيق العديد من الأمور أهمها :

-الإثبات بالأدلة الواقعية والنصوص من الكتاب المقدس ، على أن التسامح والمحبة شيء غير محبب في المسيحية ، وأن لا وجود له إطلاقا في الواقع . وأن المسيحية لم تتسامح مع المخالفين في أي عصر من العصور من عهد الملك قسطنطين إلى يومنا هذا .وأن الفكرة التي ظلت سائدة مدة قرون عديدة عند عامة الناس وبعض المفكرين على أن المسيحية هي دين السلام والمحبة ؛ ماهي إلا فكرة خاطئة ولا أساس لها من الصحة إطلاقا .

- إعطاء صورة مصغرة وعامة عن سبب نشأة محاكم التفتيش ،وعن أهم أعمالها الرهيبة ضد مسلمي الأندلس .

منهج البحث :

اعتمدت أساسا على منهجين اعتبرتهما هما الأنسبين لبحثي هذا :

المنهج التاريخي : حيث استعملته في سرد الأحداث التاريخية والمقارنة بينها وإبراز الروايات الصحيحة من الروايات الكاذبة .

- **المنهج الاستقرائي** :و اعتمدت عليه بنسبة كبيرة في الوصـــول إلى نتيجة حتمية هي أن المسيحية تنظر إلى الديانات الأخرى نظرة عدائية .وهذا من خلال تتبعي واستقرائي للكتاب المقدس و للتاريخ المسيحي .

تقييم المصادر والمراجع المستعملة والدراسات السابقة :

أما عن المصادر والمراجع التي تحدثت عن الموريسكيين ومعاناتهم عامـــة وعن محاكم التفتيش خاصة ، فإنها تعد نادرة الوجود إن لم نقل منعدمة بالكليـــة باللغة العربية .لأن جل الباحثين والدارسين العرب اتجهوا وانكبوا على دراســـة التاريخ الأندلسي قبل سقوط غرناطة ١٤٩٢م .أما الفترة التي عاشهاالعرب بعـــد السقوط فقد ظل البحث فيها مقتصرا علـــى البـــاحثين الأوروبـــيين ؛ والـــذين درسواوفحصوا المخطوطات الموجودة في إسبانيا خاصة والتي كتبت غالبيتـــها في القرن السادس عشر الميلادي . إلا أن الملفت للانتباه في نظري أنهـــم لم يعطـــوا محاكم التفتيش حقها من الدراسة الوافية .اللهم إلا البعض منهم ،والتي تعد بحوثهم قيمة للغاية .

وقد اعتمدت في هذا الموضوع على مجموعة من دراسات ومؤلفات نخبة من الأساتذة و المؤرخين العرب والأوروبيين منهم :

١- د/ عبد الجليل التميمي ؛ والذي يعد من أكبر المتخصصين و الباحثين العرب في تاريخ الموريسكيين ومحاكم التفتيش . وأهم كتبه التي رجعت إليها كثيرا كتابه تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية، و كتابه الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، وكتابه دراسات في التاريخ المورسكي الأندلسي والمقالات التي نشرها في المجلة المغربية عن محاكم التفتيش الموريسكيين .

٢- د/ محمد عبد الله عنان ؛ وكتابه الكبير دولة الإسلام في الأندلس ، والذي خصص الجزء الأخير منه للتحدث عن معاملة السلطة الإسبانية للموريسكيين ولأعمال محاكم التفتيش .

٣- د/ عبد الرحمن الحجي ، من خلال كتابه محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها . والذي رغم عدم تعمقه في دراسة محاكم التفتيش ، إلا أنه يعد عملا هامّا في التعريف بهذه المحاكم .

٤- د/ عبد الله حمادي ، على الرّغم من أنه لا يعد من المتخصصين البارزين في تاريخ المورسكيين ومحاكم التفتيش ؛ إلا أن كتابه "المورسكيون ومحاكم التفتيش " يعتبر من الكتب الجيدة ، التي أحاطت بالموضوع إحاطة جيدة .

أما الدراسات الأوروبية عن محاكم التفتيش فقد اعتمدت بدرجة كبيرة على كتاب l'Espagne histoirede ل :(PIERREVILAR) وكتاب:convesion: the moriscos

HENRY CHARLES LEA: ل and explusion و كتاب: المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية (١٤٩٢-١٦١٠ م) ل : لوي كارديناك.

وقصة العرب في إسبانيا ل : ستانلي لان – بول . وبعض الكتب لاتقل أهمية وفائدة عن الكتب السابقة.

خطة البحث

قسمت بحثي إلى ثلاثة فصول، والفصول إلى مباحث وهي:

الفصل الأول: تطرقت فيه ،إلى الأسباب الرئيسية في ظهور الاضطهاد ؛ وقد وجدتها تكمن في أربعة أسباب .

ثم تناولت نظرة المسيحية ورجالها إلى المخالفين في العقيدة ؛ متتبعا نصوص الكتاب المقدس والتاريخ المسيحي.

الفصل الثاني : تحدثت فيه بنوع من الإجمال في المبحث الأول منه عن الفتح الإسلامي لإسبانيا، وعن الفوائد الكبيرة التي جنتها من هذا الفتح ؛ فبضدّها تتميّز الأشياء .

وفي المبحث الثاني تناولت صورا وأنواعا من الاضطهاد الذي تعرض له الموريسكيين من إجبار لهم على التنصر ، وعلى عدم التكلم باللغة العربية ، وعلى ترك العادات والشعائر الإسلامية .ونقلت الكثير من الحوادث التاريخية التي تدل دلالة واضحة على قسوة وهمجية رجال الدين المسيحيين ، وعلى عناد وإصرار الموريسكيين على التشبث بدينهم وثقافتهم الإسلامية .

أما المبحث الثالث : فقد تناولت فيه نشأة محاكم التفتيش وأعمالها. والأساليب التي استعملتها وانتهجتها ضد المسلمين الموريسكيين ، والخطوات التي كانت تتبعها أثناء محاكمة من تثبت إدانتهم . وشهادات كبار المؤرخين الأوروبيين على وحشيتها ولا إنسانيتها .

الفصل الثالث : وقد تناولت فيه عملية طرد الموريسكيين من إسبانيا سنة١٦٠٩ م . ثم بينت النتائج الوخيمة التي حلت بإسبانيا بعد طردهم فثمّة نتائج سياسية واقتصادية وحضارية .

ثم ختمت هذا الفصل بالتحدث عن التسامح الإسلامي مثبتا ومبرهنا على ذلك بأدلة من القرآن ومن التاريخ الإسلامي .وختمته بنقل شهادات حية عن علماء غربيين شهدوا على هذا التسامح الإسلامي .

وفي الختام نسأل الله العلي العظيم أن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول: الاضطهاد وصلته بالمسيحية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــــد:

الاضطهاد مشتق من مصدر طهد يطهد طهدا : و معناه الإجبـــار و القهـــر و القسر .تقول مثلا فلان رجل مضطهد : أي مقهور . أو تقول فلان طهـــدة لكل أحد أي : من شاء أن يقهره فعل .

يقول ابن شميل اضطهد فلان فلانا إذا أضعفه و قسره .[1]

و باختصار فالمعنى اللغوي للاضطهاد هو القهر و القسر .

و أما اصطلاحا :فإن الاضطهاد هو من الاصطلاحات الحديثة التي لم يتطرق لها العلماء و الباحثين إلى إعطائها تعريف جامع مانع . و لكنني وجدت بعد عناء البحث في القواميس العلمية و الدينية و الموســـوعات التاريخيـــة تعريف له إذا هو : « استعمال الغصب في أمور الضمير ، وإيقاع القصاص لأجل مخالفته للشريعة الدينية ».[2]

أو هو : " هو إلزام أو إجبار الضعيف على اعتقاد ما يعتقده القوي " .

---

[1] أنظر : ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق : عبد الله علي الكبير و آخرون ((دط) ؛ بيروت : دار المعارف ، (دت)) (٤/٢٦١٦) . و انظر إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة و الصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار (ط٤ ؛ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٤ م) (٢/٥٠١). و انظر أيضا : جبران مسعود ، الرائد ، (ط٥ ؛ بيروت : دار العلم للملايـــين ، ١٩٨٦ م) (٢/٩٥٥).

[2] قاموس الكتاب المقدس د/ بطرس عبد الملك و آخرون . مصر دار مكتبـــة العائلـــة ط١٣,٢٠٠٠م

المبحث الأول: أسباب الاضطهاد

الاضطهاد له أسباب و عوامل كثيرة، تختلف باختلاف الأزمنة و البلاد . ولكن أهم هذه الأسباب في ظهور الاضطهاد على العموم تكمن في أربعة أسباب وهي :

الأسباب الاقتصادية

الأسباب السياسية

الأسباب القومية

الأسباب الدينية

المطلب الأول: الأسباب الاقتصادية

يعتبر الحافز الاقتصادي أو الطمع الدنيوي ، من أقوى البواعث و الأسباب التي أدت بالدول إلى الصدام و الاقتتال ؛ و خاصة في وقتنا الحاضر .

فالأزمات الاقتصادية الحادة تدفع بالدولة إلى إيجاد مخرج لذلك ، و قد لا تجد هذا المخرج إلا في احتلال دولة ضعيفة ،مما ينتج عن ذلك قيام الحروب الطاحنة . فيذهب من جراء ذلك ملايين من البشر . و ما حدث في أمريكا اللاتينية و أفريقيا لهو خير مثال على ذلك و كان السبب الاقتصادي هو الدافع الأول في إقدام الدول الكبرى في ذلك الوقت على اضطهاد الشعوب الفقيرة .

و قد لا تجد الدولة المخرج من أزمتها الاقتصادية ، فربما تنظر إلى الطوائف و الأقليات الدينية المنطوية تحت حكمها ، على أنها هي السبب في هذه الأزمة . و لا سيما إذا كانت تلك الدولة تحكمها الخرافة و الدجل .ومثل ما حدث لليهود في القرون الوسطى في أوروبا من اضطهاد و ظلم من طرف رجال الدين لهو خير

مثال على ذلك . فقد كانت الكنيسة تنظر إليهم على أنهم هم السبب في النكبات و المحن التي حلت بأوروبا من أزمات اقتصادية و سياسية . ففرضت عليهم عقوبات صارمة ، و حرمتهم من الكثير من الحقوق الإنسانية .

و الحروب التي جرت في القرون الوسطى بين العالم الإسلامي و المسيحي ، مثل الحروب الصليبية . كان الدافع الاقتصادي قويا في نشوبها . فقد كانت الجيوش الأوروبية المتجهة إلى العالم الإسلامي هدفها الأول هو الاستيلاء على خيراته. حتى رجال الدين كان القليل منهم فقط من يدفعه ويحرّكه الدين .

و ما حدث بعد النهضة الأوروبية ، و بعد الحرب العالمية الثانية من صراعات رهيبة و حروب كثيرة بين الدول الكبرى في الكثير من مناطق العالم ، كان الدافع الدنيوي فيها هو أكبر الدوافع على الإطلاق .

المطلب الثاني : الأسباب السياسية

يعتبر الدافع السياسي أو الإيديولوجي من الدوافع التي أحدثت حروبا طويلة بين الدول . والمراد بالدافع السياسي هو ذلك الاختلاف الجوهري الذي يحدث بين الدول أو بين الأفراد ؛ مرده إلى اختلاف الرؤى والأفكار .

فالأول مثل احتلال الدول القوية للدول الصغيرة ؛ كاحتلال النازية للدول الأوروبية ، أو مثل احتلال الاتحاد السوفياتي للجمهوريات الإسلامية في آسيا ، أو ما حدث بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي من صراع ومن صدام أحيانا في العديد من مناطق العالم بعد الحرب العالمية الثانية .

أو ما يحدث من خلاف بين الأقليات و الدولة المركزية ؛فينتج عن ذلك انتفاضة وثورة تؤدي إلى حدوث ضحايا أبرياء .

أما الثاني فالمقصود به ما يحدث بين الأفراد أو أمراء الدولة الواحدة من تنافس وطمع في تولي زمام الحكم .فما حدث بين أمراء المسلمين من تصفيات وإبادات كثيرة ، وما حدث بين حكام وأمراء الدول الأوروبية في القرون الوسطى ، كان مرده في الغالب إلى الخلافات السياسية .

وما زال هذا الدافع يعتبر من الدوافع الأساسية فيما يحدث بين الشعوب من صدامات عسكرية. وهذا نجده في الغالب في دول العالم الثالث ؛ حيث الشورى وحرية التعبير منعدمة تقريبا .

المطلب الثالث : الأسباب القومية

تعد ظاهرة التعصب للجنس ، من الأسباب القديمة التي كان لها دور كبير في نشوب الحروب بين الأمم والشعوب ، وظهور الاضطهاد فيما بينهم .حيث كان ينظر الإنسان إلى بني قومه وجنسه نظرة خاصة ، و في المقابل ينظر إلى باقي الأجناس الأخرى نظرة احتقار وازدراء .فيؤدي ذلك إلى اعتبار أمته أرقى الأمم؛ وبالتالي فلها الحق في السلطة والحكم . وأنها منبع الحضارة و الرقي . يقول هتلر عن الجنس الآري « فكل ما نراه من الحضارات البشرية يعود بأصله إلى ثمرة النشاط الآري الخلاق . فقد كان الآري و ما زال حامل المشعل الإلهي الذي ينير الطريق أمام البشرية . فشرارة العبقرية الإلهية انطلقت من جبينه المشرق . وهو الذي فتح دروب المعرفة أمام الإنسان . ليجعل منه سيد الكائنات الحياة على هذه الأرض .فإذا توارى الآري سيسود الظلام ، وتنهار الحضارة البشرية في بضعة قرون ».[1]

[1] كفاحي ،(دط، لبنان : بيروت)ص ١٠١.

كم أعطى له الحق في استغلال غير الآريين قال: « ولا يمكن للآري أن يضع الأسس الأولى ما لم يستخدم الشعوب الوضيعة في بناء الأساس الحضاري ».[1]

وقد ظهرت فكرة الشعوبية في عهد الدولة الرومانية والفارسية ، حيث كان يعتقد الجنس الروماني والفارسي أنه أفضل الأمم ، وأن باقي الشعوب الأخرى ما هي إلا حثالة ليس لها الحق في الحكم . ومهمتهم الوحيدة هي خدمة الدولة الرومانية والفارسية فقط.

ولكن بعد أن ظهر الإسلام نزع هذه الفكرة الخاطئة من أذهان المسلمين ، وأكد لهم أن الناس لا يتفاضلون على بعضهم البعض إلا بالتقوى . ورغم هذا فقد ظهرت مرة أخرى في عهد الدولة الأموية والعباسية والعثمانية .بل إنها زادت قوة وانتشارا.مما ولد رد فعل قوي من طرف الأقليات ، أدت في بعض الأحيان إلى تعاون هذه الأقليات مع الكفار ضد السلطة المركزية . وكان هذا من أسباب سقوط تلك الدول .

ثم زاد الأمر تعقيدا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، خاصة في البلاد الأوروبية .حيث انتشرت فكرة القوميات بشكل رهيب أدت إلى التصادم والاقتتال، خلفت وراءها ملايين القتلى والجرحى ؛ وما حدث لليهود ولبعض الشعوب على يد النازية لهو خير مثال على ذلك .

وبالتالي يتضح لنا أن التعصب للجنس يعد عاملا مهما في ظهور الاضطهاد .

المطلب الرابع :الأسباب الدينية

إن السبب الديني ، ظل لمدة قرون عديدة السبب البارز في ظهور الحروب و الاضطهادات ، لأن الدين في الغالب و خاصة الدين الوثني يولد لدى أتباعه نوعا

من الحقد و العنصرية ضد الكافرين المخالفين لهذا الدين .فهو ينظر إليهم دائما على أنهم أقوام نجسة لا يستحقون الحياة ، و من ثم يجب محاربتهم والقضاء عليهم ، بأية وسيلة ممكنة شرعية كانت أم غير شرعية .

و ما المجازر التي وقعت عبر التاريخ الإنساني الطويل ، إلا دلالة قوية على صحة ما نقول . إذ كانت هذه المجازر الرهيبة دافعها الأول هو الدين ، و بمباركة رجاله ؛ الذين كانوا يعتبرون القتل شيئا محمودا إذا كان ضد وثني .

و إن الشواهد التاريخية لا تعد و لا تحصى ، في أن الدين كان هو العامل الوحيد في حدوث و ظهور الاضطهاد . فما حدث بين الطوائف المسيحية و اليهودية وحتى الطوائف المسلمة من قتل و تشريد و نهب و إبادة يعجز اللسان عن وصفها تمثل صورة مصغرة على ذلك.

ففي أوروبا و بالتدقيق أثناء ظهور الأفكار الإصلاحية بها بزعامة المصلح الديني "لوثر" ، فإنه قد أقدمت الكنيسة الكاثوليكية على اضطهاد أتباعه من البروتستانتيين ، فقتلت الملايين في أنحاء عديدة من أوروبا . لأنها كانت تتهمهم بالهرطقة و الكفر . ولم يكن حال الكاثوليكيين أحسن حالا بعد أن تولى البروتستانتيون زمام الحكم في بعض البلاد الأوروبية ؛ فكان ما قاموا به هو الاضطهاد كذلك. ففي عهد ليزابيت حرمت على الكاثولكين إقامة الشعائر الدينية ، و حطمت الصور المقدسة . وما زال هذا الصراع بين هاتين الفرقتين إلى اليوم . ففي ايرلندا حيث البروتستانتية إلا في الشمال .أما الجنوب الكاثوليكي . وهو ما أشعل نار التعصب و أباح استثمار ايرلندا و مصادرة أموال الكنائس الكاثوليكية ... و استرقاق الايرلنديين و اضطهادهم ، وذلك بفرض الضرائب . و الخدمات التي كانت من وراء ثراء الإنجليكان . خاصة منذ النصف الثاني

من القرن السادس عشر . وهو التاريخ الذي بلغ فيه التعصب أوجه حيث فصل فيه بين البروتستانتي الممتاز ، و بين الكاثوليكي المستحقر و المستضعف إلى درجة تحريم ارثه لواحد من عائلته إن كان بروتستانتيا.[1]

و هذا ما جرى بين الطوائف الإسلامية أيضا ، و كان مرد ذلك الخلافات العقدية والفقهية فيما بينهم ، مقرونة في الكثير من الأحيان بالتعصب المذموم و ضيق أفق التفكير. فكانوا يتزلون على بعضهم البعض أشد العقوبات ، ولا يسما إذا صارت مقاليد الحكم في أيديهم . و الشواهد التاريخية كثيرة .مثل ما حدث بين السنة و الشيعة ، و بين الخوارج و أهل السنة أو ما حدث بين الشافعية و الحنفية من خصومات شديدة و خلافات عميقة أدت إلى تكفير بعضهم البعض ، و إلى تضييق الخناق بعضهم على بعض و الحرمان من تولي المناصب العليا في الدولة

و حتى يومنا الحاضر لا زال العامل الديني يعتبر من أقوى الأسباب التي تثير الخلافات و الخصومات بين الشعوب و الأمم . بل إنه حتى في أثناء الاحتلال الاستعماري لعدد كبير من الدول كان الشعار الديني بارزا في جميع الحملات الاستعمارية رغم ما أشيع على أن الدين لم يكن له دور في ذلك .

[1] التعصب و الصراع العرقي و اللغوي لماذا و كيف ؟ د/أحمد بن نعمان (ط٢،الجزائر : دار الأمة ١٩٩٧)ص١٣٥ .

المبحث الثاني : جذور الاضطهاد من خلال الكتاب المقدّس

المطلب الأول : النصوص الحاضّة على التسامح

إن القارئ أو الدارس للكتاب المقدس وخاصة العهد الجديد ، يمر على بعض الفقرات والأقوال ،التي تدعوا صراحة إلى التسامح ، وإلى المعاملة الحسنة مع المخالفين في العقيدة ، وتثني كثيرا على دعاة المحبة والسلام في العالم ، بل تعتبرهم كأنهم أبناء الله حقيقة إذ يقول عيسى عليه السلام " طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون "[1]. ويقول الرسول يوحنا « كل من يحب فقد ولد من الله ، ومن لا يحب لم يعرف الله، لأن الله محبة ».[2] « و المسيح علمنا بحركاته كما علمنا بكلامه عندما حمل أبوه على مسامحة الذين صلبوه .[3]« هذا القانون الجديد الذي يخالف القانون القديم الذي يقتضي بغض الأعداء من جهة و مخالفتهم من جهة أخرى. فيسوع المسيح إنما جاء :« ليكون صانع سلام ، و ليعظ البشر بأن يكونوا صانعي سلام . و ينبههم إلى أنهم يصبحون أبناء الله فقط عندما يكونوا صانعي سلام ».[4]

---

[1] متى ٥ : ٩ .

[2] رسالة يوحنا الأولى ٣:١٥

[3] M –de genoude, saint bible , R1p39

[4] شفيق مقار ، المسيحية التوراة بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط (ط١، لندن – قبرص: رياض الريس، ١٩٩٢م)ص

« وكل داعي إلى السلام ، فهو داخل لا محالة إلى مملكة الرب التي هي ليست للمحاربين ولا لشاربي الدماء . بل للمساكين بالروح و المطرودين (المرفوضين مثله) من اجل البر (من اجل الإصلاح)»[1].

وصانعي السلام كما يقول القديس هيلار: « هم من يعملون أول الأمر من أن يستكين السلم في قلوبهم ثم يجتهدون لنشره بين إخوتهم المنقسمين ، و مصالحتهم مع الرب بعدما جعلتهم المعصية أعداءا . وكل هذا لن يتأتى إلا بورعهم و إخلاص هم في منح السلام لأن المسيح ما أتى إلا لإعادة السلام و نشره بين البشرية . وصلب و جلد من أجل ذلك . وهذه المملكة هي التي يبحث عنها المسيحيون أي مملكة السلام الدائم .

يقول القديس هيلار :« لن يكون بخير نحن أبناء الرب إلا إذا نسينا إراديا . كل الأشياء التي من شأنها أن تعكر صفو حياتنا ، و بهذا فقط يمكننا أن نعيش مع أخوتنا في أ من و سلام تام »[2]

و يقول القديس بولس « وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ، ولكن ليس لي محبة . فليس شيئا . وان أظلمت كل أموالي . و إن سلمت جسدي حتى أحترق ولكن لي محبة فلا انتفع شيئا »[3]

« وظل هذا التسامح إبان اعتناق الدولة الرومانية للديانة المسيحية قائما بين جميع الأديان حتى بعد « اعتناق قسطنطين للمسيحية في ٣١٢م. فقد قام بعض رجال المسيحية يطالبون بقصر الدين على المسيحية . واضطهاد سائر

---

[1] نفس المكان

saint bible ١ /٥٦٢

[3] رسالة بولس الأول إلى أهل كورنثوس ١٣: ٢-٤

الأديان . لكنه صمد لهم و استمر على سياسة تعايش كل الأديان معا . لكن مع ذلك اشتد مع الهراطقة و حاول وقف نشاطهم . فاضطهد فرقة الدوناتية وهي فرقة مسيحية بينما ترك الديانة الوثنية الحرة تماما . لكن خلفاءه بتحريض من المسيحيين المتعصبين مثل ميكوس ما ترنوس(frimicus maternus) أخذوا في اضطهاد الأديان الأخرى [1] .

حتى أن القديس أوغسطين . كان في بداية أمره شبه متسامح مع الهراطقة و أتباع الأديان الأخرى . و قال أنه « يجب ألا يرغم أحد على القول بوجود المسيح ... و أنه ينبغي لنا ألا نقابل الناس إلا بقوة الحجة و ألا نتغلب إلا بقوة العقل »[2]

وعيسى عليه السلام في بعض أمثاله وأقواله للحواريين والمؤمنين به ، ينبههم على أنهم سوف يتعرضون إلى البغض والاضطهاد والظلم من طرف أعدائهم فيقول لهم :" إن كان العالَمُ يُبغِضكم فاعلمُوا أنهُ قد أبغَضَني قبلكم . لو كنت من العالَمِ لكان العالَمُ يحبُّ خَاصتهُ ولكن لأنكُم لستُم من العالَمِ بل أنا اخترتُكُم من العالَمِ . لذلك يُبغضكُم العالَمُ أذكرُوا الكلامَ الذي قُلتهُ لكُم: ليس عبدٌ أعظمَ من سيدهِ إن كانوا قد اضطَهَدوني فَسيضطَهدونكُم "[3]. ولكنه نصحهم أن لا يكون ردهم بالمثل كما تحض على ذلك التوراة . بل عليهم أن يدفعوا الشر بالخير والإساءة بالمعروف ... لأن ذلك هو أحسن طريقة لدفع الشر والقضاء على الأشرار . فيقول لهم :"

---

٣ قصة الحضارة ١٣٨ترجمة : فؤاد أندراوس وآخرون .ط١ بيروت : دار الجيل والقاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (دت)١٣٨

[2] نفس المكان

[3] يوحنا ١٥ : ١٨-٢٠

سمعتُم أنه قيل :عينٌ بعينٍ وسنٌ بسنٍ وأما أنا فأقول لكم : لا تقاومُوا الشرَّ بل من لطمكَ على خدِّكَ الأيمنِ فحول له الآخر أيضًا . ومن أرادَ أن يخاصِمكَ ويأخُذ ثوبكَ فاترُك لهُ الرِّداء أيضًا "[1].

فالعهد الجديد يحثنا باختصار إلى" أن نحن إلى من يسيئون إلينا ، لا أن نتجه إلى الرغبة في التصرف بالمثل ، بل يجب أن نغفر "[2]. بل زيادة على ذلك يجب علينا أن نحب الأعداء ، وأن نصلي لأجلهم ، عسى الله أن يهديهم إلى الطريق المستقيم. يقول عيسى عليه السلام في عدة مواضع من الإنجيل ناصحا الحواريين بذلك "ولكني أقُولُ لكُم أيُّها السامعون : أحبوا أعداءكم أحسنُوا إلى مبغِضيكُم باركُوا لاعنِيكُم وصلُّوا لأجلِ الذين يُسيئونَ إليكُم "[3]و"ولا تستثني شريعة المحبة أحدا فهي تتناول حتى الأعداء أنفسهم "[4] إذ يقول عيسى للحواريين "سمعتم أنه قيل : تحبُ قريبكَ وتُبغضُ عدوكَ وأمّا أنا فأقولُ لكُم : أحبُوا أعداءكُم باركُوا لاعنِيكُم أحسِنوا إلى مبغضيكُم وصلوا لأجلِ الذين يُسيئونَ إليكُم ويُطردونكُم "[5].

فعيسى عليه السلام من خلال حكمه يدعونا إلى أن نتخلى عن الثأر وكان هذا الأمر أمرا شائعا في عصره بين الدول والشعوب ومنهم اليهود [6]. ثم أعطانا

---

[1] متى ٥ :٣٩-٤١

٤-بروس بارتون وآخرون ، التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ((دط)؛ شركة ماستر ميديا ، ١٩٨٨م) ، ص١٨٨٦.

[3] لوقا ٦:٢٧-٢٨-٣٠

[4] الأب بولس إلياس اليسوعي ، خلاصة الدين المسيحي (ط٢ ؛ بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٧م) ، ص١٤٩.

[5] متى ٥ : ٤٣-٤٤.

الوسيلة الناجحة لمقاومة الأشرار بعد إسداء الخير لهم ،و هي الصلاة والدعاء لهم . وهي تعتبر أعلى مراتب الحب . وهذه المحبة ليست معناها كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس ، هي التبادل الشعوري فقط للأعداء ، ولكن هي " العمل لصالحه ، والصلاة لأجله ، وإيجاد الطرق لمساعدته وهدايته "[1].

وهكذا يتبين لنا أن عيسى عليه السلام من خلال أقواله جاء "ليبشر بالرحمة والإشفاق والمحبة " [2]. بين جميع الشعوب الإنسانية ؛ بدليل أنه مد يد العون والمساعدة إلى المرأة الكنعانية مع أنها تنتمي إلى الأقوام الوثنية . فقد شفى لها ابنتها المريضة حيث جاء في العهد الجديد ما يلي:"ثم قَامَ من هناكَ ومضَى إلى تُخومِ صورَ وصَيدَاء ودخلَ بيتًا وهو يريدُ أن لا يعلمَ أحدٌ . فلم يقدِر أن يختفيَ لأن امرأةً كانَ بابنتِها روحٌ نجسٌ سمعت به فأتَت وخرَّت عند قدميه وكانت المرأة أممية وفي جنسهَا فينيقيةً سوريةً فسألتهُ أن يُخرجَ الشيطانَ من ابنتِهَا وأما يسوع فقالَ لها: دعي البنينَ أولاً يشبعُونَ لأنهُ ليس حسنًا أن يؤخذَ خبزُ البنينَ ويُطرحَ للكلابِ. فأجابت وقالت لهُ :نعم يا سيدُ! والكلابُ أيضًا تحت المائدةِ تأكل من فُتاتِ البنينَ!.فقال لها : لأجلِ هذهِ الكلمةِ ، اذهبي قد خرجَ الشيطانُ من ابنتك. فذهبت إلى بيتِهَا ووجدتِ الشيطانُ قد خرجَ، والابنةُ مطروحةً على الفراشِ"[3].

أما عن موقف المسيحية من الحرب فقد كان موقفا صارما إذ لعنتها ورفضتها ، واعتبرتها من أعمال الشيطان ، وأكدت أن من "كل الذين يأخذون

---

[1] بروس بارتون ، المصدر السابق ، ص٢٠٨٦.

[2] د/عبد الحليم محمود ، أوروبا والإسلام ،((دط) ؛ بيروت : المكتبة العربية ، (دت)) ، ص٢٦.

[3] مرقس ٧: ٢٤-٣٠

السيفَ بالسيفِ يهلكون"[1]. و"أن كل قاتلِ نفسٍ ليسَ له حياةُ أبديةُ ثابتةٌ فيه "[2]. وهذا ما نجده في العهد القديم أيضا ، فقد حرم القتل واعتبره عملا لا يرضي الله عز وجل ، فمن وصايا الله عز وجل إلى نبيه موسى قوله "لا تقتُل"[3].

وقد سار على هذه الوصايا كبار علماء اللاهوت المسيحي مثل : أورجين (ORIGENE)، وتارتليان(TERTULIENE)، وسانت أمبراوز (SAINT AMBRAOUZ)، فقد رفضوا جميعا"رفضا قاطعا ، اللجوء إلى العنف مهما تكن الغاية "[4]. حتى ولو كانت شريفة .

ولكن ما إن جاء القديس أوغسطين(AUGUSTIN) حتّىأحدث إنقلابا كبيرا وجوهريا في مفهوم الحرب عند المسيحية . فقد دعا إلى إرغام الأعداء على اعتناقها مستدلا بقول عيسى عليه السلام في الإنجيل :" ألزِموهُم بالدخولِ حتى يمتلئَ بيتي.[5] " وفلسفة ذلك أنّ إرغامهم على الدخول في دين المسيح عليه السلام ، يؤدي بهم إلى نجاة أرواحهم ، وهذا دليل -في نظره- على المحبة.أو على الأقل تعليمهم تعاليم عيسى -عليه السلام- .

كما أنه أجاز للمسيحيين محاربة سائر الأديان الوثنية ، وأطلق على هذه الحرب بالحرب العادلة واشترط فيها شرطين حتى تكون كذلك :

---

[1] متى ٢٦ : ٥٢.

[2] رسالة يوحنا الأولى ١٥:٣.

[3] تثنية ٥: ١٧.

[4] جاستون بوتول ، الحرب والمجتمع تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية.، ترجمة : عباس الشربيني، (ط٣؛ بيروت : النهضة العربية ، ١٩٨٣م) ص٢٧.

[5] لوقا ٩: ٢٣.

أولا : يجب أن تكون لصد الغزو الأجنبي وحماية الأمة المسيحية منه .

ثانيا : تجوز إذا حققت حقا من حقوق المسيحية ، ومن هذه الحقوق في اعتقاده تنصير الأمم الأخرى .[1]

و إذا سألنا أوغسطين عن سر تحريم عيسى عليه السلام وحوارييه استعمال أسلوب القوة مع الآخرين . فإنه يجيبنا أن المسيحية في ذلك الوقت كانت تفتقر إلى السلطة الملكية . ولو حدث هذا فإنها لن تتورع عن ارتكاب الجرائم والمجازر ضد كل من هو غير مسيحي . مستدلا على ذلك بما فعله أنبياء اليهود مع الأمميين .مثلما فعله النبي أشعيا وداوود عليهما السلام مع الأقوام السبعة في فلسطين ، حين اجتمعت لهم القوة الروحية مع القوة الملكية فأبادوهم شر إبادة.

وقد كانت أفكار أوغسطين لها الأثر البارز على رجال الدين المسيحيين ، وظلت أفكاره هي التي يسير عليها باباوات الكنيسة . حتى مطلع القرن الثالث عشر[2] .

وبظهور الحركة الإصلاحية بزعامة العديد من المصلحين المسيحيين رفضوا فكرة أوغسطين(AUGUSTIN) عن الحرب ، كما أنهم رفضوا الأسلوب التي انتهجته الكنيسة مع الكفار و الهراطقة ، ودعوا إلى ترك الحرية الدينية لأصحاب الملل الأخرى ، وطالبوا بإلغاء محاكم التفتيش المنتشرة في أوروبا . وأعلن لوثر أن التغلب

---

[1] أنظر le cardinal gousset : theologie morale:624

[2] يقول جوزيف ماك كيب عن أوغسطين وبولس "حقا لقد حطم بولس من ناحية وأوغسطين من ناحية أخرى مدينة الإنسان " أنظر : مدينة المسلمين في إسبانيا ، ترجمة : د/محمد تقي الدين الهلالي ،ط٢؛ (دم) مكتبة المعارف ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) ، ص٣٠.

على الملحدين يكون "بواسطة الكتابة لا بواسطة النار "[1] . رد على البابا ليو العاشر بقوله : « إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس »[2] . و هاجم السلطة الزمنية و تدخلاتها في تعذيب الهراطقة و الكفار :« إن الله هو المتصرف في الروح ولن يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحا جليا بحيث يفهمه كل إنسان . ولكي يرى نبلاؤونا و أمراؤنا و أساقفتنا إلى أي حد تبلغ حماقتهم عندما ينشدون اكره الناس على الإيمان بشيء أو بآخر ... لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان »[3] ثم يوجه الخطاب إليه فقال: « إن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاؤون . و ألا تكره أحدا على شيء بالقوة . لأن الإيمان عمل يتم بحرية ولا يكره عليه أحد . و الإيمان و الهرطقة لا يشتدان إلا عندما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم بلا سند من كلمة الله ».[4]

و كتب في يناير عام ١٥٢١م قوله « ليس أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل ».[5]

وقال في ١٥٢٩م « لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها الضرر. فليقدم خصومنا ما لديهم من اعتراضات . وليسمعوا الى

---

[1] رسالة في التسامح ، ترجمة: د/عبد الرحمن بدوي ، (ط١؛ لبنان : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م) ،ص١٣

[2] قصة الحضارة ١٤١/٢٤

[3] نفس المكان

[4] نفس المكان

[5] letter of aug 26 .1529. to jos metsh in smith . lutter 218

رددونا .فإذا ما اهتدوا فبها و نعمت . وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم و يؤمنوا بما يشاءون »[1]..

أما بقية تلاميذه .فمنهم من أيده في ذلك . ومنهم من رفض ذلك .

فأرازيموس مثلا ١٥١٧-١٥٣٦. فقد حث على حسن معاملة الغير باللطف . و أشار على الذوق جورج(george) صاحب ساكسونيا بهذا « ليس من العدل أن تعاقب على أي خطأ يرتكب ما لم يكن مق(ترنا بشعب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بإعدام ».[2]

و أيده في ذلك سبا سيان كاستيلو عالم اللسانيات . والذي عارض كالفن على إقدامه على قتل سيرفت . بل لقد نشر هو و زميله كامليوس كوريا ١٥٤٤م كتاب« التسامح» وهو عبارة عن مختارات من الشعر . من الابتهالات من أجل التسامح ومما جاء فيه أننا: نحن بحاجة إلى « أن نتحلى بروح المسمح في حياتنا اليومية . و أن نطعم الفقراء و نساعد المرضي و نحب الأعداء ».[3] و يقول: « وهل يمكن أن نتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حيا لأنه يدافع عن تعميد البالغين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التي تدعو إلى القضاء على كل هرطيق . شريعة المسيح التي تدعو إلى الرحمة لا إلى التعسف و الإرهاب ».[4].

---

[1] نفس المكان

[2] قصة الحضارة٢٤/ ١٦٦.

[3] المرجع نفسه ٢٥١

[4] المرجع نفسه ٢٥٢

أما توما الأكويني فقد ميز بين الكفر و الهرطقة و الارتداد « فالهرطقة يجب قتلهم كما الأمر أيضا في المرتدين .أما الغير مؤمنين فإنه يمكن السماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية وخاصة اليهود « لأن شعائرهم ترمز إلى شعائر الدين المسيحي قبل ظهوره فتشهد بذلك على صحة هذا الدين . و يجب ألا يرغم اليهود غير المعمدين على اعتناق الدين المسيحي ».[1]

أما جون لوك فقال : « و الآن فإني أناشد ضمائر أولائيك الذين يضطهدون و يعذبون و ينهبون و يذبحون غيرهم من الناس بدعوى الدين . أن يخبروني هل يفعلون ذلك بدافع من المحبة و الإحسان ؟».[2]. ثم قال « فإن عليهم أن يقتفوا أثر خطوته و أن يقتدوا بالنموذج الكامل الذي وضعه أمير السلام ، الذي بعث بحواريه لإخضاع الأمم و حشدها في كنيسة . دون أن يتسلحوا بالسيف أو بالقوة . وإنما بإنجيل رسالة السلام و الأسوة الحسنة في سلوكهم ».[3] ثم يقول « إن التسامح بين أولائيك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين هو أمر يرضي الإنجيل و العقل »[4]

و يجيب على الذين يذهبون إلى أسلوب العنف استدلال بشريعة موسى . يجيبهم لوك أن شريعة موسى لا تلزم المسيحيين بدليل أن قوله اسمع يا إسرائيل .« تقصر على اليهود وحدهم ».[5]

---

[1] المرجع نفسه ١٤٠/١٧

[2] رسال في التسامح ص ٦٦

[3] المرجع نفسه ٦٨

[4] المصدر السابق ص ٦٩

[5] المرجع نفسه ص١٠٣

يعلل شريعة موسى ينقسم إلى : الوثنيين على نوعين : كان هنالك أولا أولائيك الذين نشئوا على شعائر الموسوية و صاروا مواطنين في تلك الدولة . وبعد ذلك ارتدوا عن عبادة اله إسرائيل و كان هؤلاء يحاكمون بوصفهم خونة و عصاة و مرتكبين للخيانة العظمى .

ثانيا : الأجانب الغرباء عن دولة بني إسرائيل لم يرغموا بالقوة القاهرة على قبول الشعائر الموسوية على العكس نجد أنه في نفس الفقرة التي فيها يهدد الإسرائيليين الذين صاروا و وثنيين بالقتل[1]. تقرر الشريعة أنه لا يجوز مضايقة الأجنبي ولا اضطهاده .١٠٤

أما الذين قتلوا من الأمم السبعة لأن إله إسرائيل « لم يكن يستطيع أن يحتمل عبادة أية قوة إلهية أخرى في دولته هو . على أرض كنعان لأن ذلك كان سيكون حقا عملا من أعمال الخيانة ضد ذاته هو ».

أما عن الملحد فقال « لا يجوز أبدا التسامح مع من ينكرون وجود الله »١٤٤

ولكن الحقيقة المؤسفة أن هذا كان شعارا فقط إذ لم يجسدوه في أرض الواقع . ويقول جون لوك (John locke) ردا عن اللذين يزعمون أن القسوة مع العـــذاب مشروعة في المسيحية . "...أما أن يكون على كنيسة المسيح ، أن تضطهد الآخرين أو أن تعنفهم أو ترغمهم بالقوة بالسيف والنار على اعتناق إيمانها وعقائدها ،فإني لا أذكر أني قرأت شيء من هذا في أي موضع من العهد الجديد "[2].

---

[1] سفر الخروج ٢٢/٢٠-٢١

[2].جون لوك ، المرجع السابق ، ص٧٦.

وهذا الرأي ، يوافقه جميع علماء الإسلام كابن كثير رحمه الله[1] ، إذ يـــرون أن المسيحية في أصلها دين فضل وتسامح ، عكس اليهودية .

المطلب الثاني: النصوص الحاضّة على عدم التسامح

يذهب كثيرمن العلماء و المفكرين إلى أنه توجد صلة مباشرة بين الكتاب المقدس والعنف ، فهو في العموم يحث على كره الأمم الأخرى ، وعلى اســتعمال أسلوب العنف والإرهاب معهم وعدم الرأفة بهم ، واعتبارهم أنجاسا لا يستحقون الحياة . كما يعتبر الكتاب المقدس أن قتلهم، أو ،سبي نسائهم، أو أخد أطفالهم ، أو نهب أموالهم أو تخريب مدنهم طاعة لله عز وجل . بل إن الله عز وجل – حسب ما جاء في العهد القديم – يبين لموسى عليه السلام ما يجب عليه أن يفعلــه مــع الأعداء أثناء الحرب فيقول له " حينَ تقربُ من مدينة لكي تحاربَهَااســتدعهَا إلى الصُّلحِ فإن أجابتكَ إلى الصُّلحِ وفتحت لك فكُلُّ الشَّعبِ الموجودِ فيهــا يكــونُ للتّسخيرِ ويُستعبدُ لكَ. وإن لم تسالمكَ بل عملت معكَ حربَــا فحاصِــرهَا و إذا دفعهَا الرَّبُ إلهُكَ إلى يدكَ فاضرِب جميعَ ذُكُورِها بحدِّ الــسيفِ وأمــا النِّــساءُ و الأطفالُ والبهَائمُ وكُلُ ما في المدينة . كلُّ غنيمَتِهَا فَتغتَنمُهَا لنفسكَ وتأكُلُ غنيمةَ أعدائكَ التي أعطاكَ الربُّ إلهُكَ " [2].

و هذه المعاملة الخاصة تكون مع غير الأمم السبعة التي ذكرتها التوراة وهي الحيثيين[3] ، والأموريين[1]،

---

[1] تفسير القرآن ،(، بيروت : دار الفكر ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م)٤/١٧١٠

[2] تثنية ٢٠ : ١٠-١٥

[3] الحيثيين ذرية « حث » ثاني أبناء كنعان ، كانوا من الأمم الساكنة كنعان قبل دخول العبرانيين ، ورد اسمهم في العهد القديم سبعة و أربعين مرة ، امتزجوا بالعبرانيين بعد دخولهم

دوالكنعانيين[2]، والفريزيين [3]، والحوايين [4]، واليبوسيين ، .فهؤلاء القبائل تكون معاملتهم أشد وأقوى . إذ يقول العهد القديم فيهم " وأمَا مُدُنُ هؤلاءِ الشعوبِ التي يُعطيكَ الرَّبُ إلهُكَ نصيبًا فلا تستبقِ منهَا نسمةَ ما . بل تُحرّمُهَا تحريمًا : الحيثيين والأموريين ، والكنعانيين والفريزيين والحوبيين واليبوسيين .كما أمَرَكَ

فلسطين ، حيث نجد أن عيسو ا اتخذ امرأتين حيثيتين (تكوين ٢٦:٢٤) وقد سخرهم سليمان كباقي الشعوب الأخرى في مملكة (١ملوك ٩: ٢٠،٢١) . انظر : الكتاب المقدس ص ٢٩٠.

[1] الأموريون يرجع نسبهم إلى كنعان ، حكموا أجزاء من فلسطين و سوريا وبابل بعض الزمن ، وكان ملوك الأسرة الأولى في بابل من القرن التاسع إلى السادس عشر قبل الميلاد أموريين ، وكان حمورابي مشرع الشرائع و القوانيين أموريا . وقد كانوا في عهد إبراهيم أهم قبيلة في حيون فلسطين (تكوين ١٣:١٤-١٧) ، وقد غزاهم يشوع [2] وكانوا يقطنون فلسطين (يشوع ١٠: ٥-١٦) ، ثم استعبدهم سليمان في عصره (١ ملوك ٩:٢٠) .انظر : الكتاب المقدس ص ١١٩. وموسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية لعبد الوهاب المسيري (١٨٣٢/٤).

[2] الكنعانيون هم أبناء كنعان الذين سكنوا فلسطين قبل العبرانيين بثلاثة قرون كانوا يعبدون إيل ، و بعل و عشيرة وغيرها . تأثر اليهود بعبادتهم هذه ، وقد كان العهد القديم قاسيا معهم ، إذ قد حكم عليهم بالهلاك بسبب بشاعة خطاياهم (تثنية ٢٠: ١٧) وقد سخرهم سليمان و فرض عليهم الجزية (١ ملوك ٩: ٢٠-٢١) انظر : قاموس الكتاب المقدس ص٧٩٠.

[3] الفريزيون : طائفة من الكنعانيين ، و أشدهم قوة و بأسا ، ورد ذكرهم في مواضع كثيرة من العهد القديم ، وسخرهم سليمان في آخر أمرهم للعبودية (١ ملوك ٢٠:٩-٢١-٢٢).

[4] نظر : موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية (١٨٤٣/٤).

اليبوسيون ك هم قبيلة كنعانية سكنوا بيوس و أورشليم و الجبال التي حولها في أيام يشوع ، وحاربهم ، و عطى أرضهم لبنيامين ، وكان موضع بيوس منحصرا بالجبل الجنوبي الشرقي الذي دعي بعدئذ صهيون ، ر مدينة داود . وقد اعتنق بعض اليبوسيين اليهودية . أنظر : الكتاب المقدس ص١٠٥٣.

الرَّبُّ إِلهُكَ لكي لا يُعلموكُم أن تعمَلُوا حسبَ جميعِ أرجاسِهم التي عَمِلوا لآلهَتِهم فتُخطِئوا إلى الرّبّ إلهكم "[1].

وجاء في موضع آخر " فإنّ ملاكِي يسيرُ أمامكَ ويَجِيء بِكَ إلى الأموريينَ والحيثيينَ ، والفريزيينَ ، والحوينَ ، واليبوسيينَ فأبيدهُم . لا تسجُد لآلهتِهم ولا تعبُدهَا ولا تعمَل كأعمالِهم بل تبيدُهُم وتكسِرُ أنصابَهُم "[2].وجاء أيضا "أحفِظ ما أنا موصيكَ اليومَ . ها أنَا طاردٌ من قُدامكَ الآموريينَ والكنعانيينَ والحيثيينَ والفريزيينَ والحوريينَ واليبوسيينَ. احترِز مِن أن تقطعَ عهدًا معَ سكانِ الأرضِ التي أنتَ آتٍ إليهَا لئلا يصيُروا فخًا في وسطكَ . بل تهدمونَ مذابحهُم وتُكسرونَ أنصابَهُم وتقطعونَ سواريهُم "[3].

وجاء قول الرب لموسى عليه السلام :"كَلِّم بني إسرائيلَ وقُل لهُم إنكُم عابرونَ الأردنَ إلى أرض كنعانَ فتطرُدون كلَّ سكانِ الأرضِ من أمامكُم وتمحونَ جميعَ تصاويرِهم وتُبيدونَ كل أصنامِهم المسبوكةِ وتخربونَ جميعَ مرتفعاتِهم " [4].

وجاء أيضا "متى أتى بكَ الرّبُ إلهُكَ إلى الأرضِ التي أنتَ داخلٌ إليهَا لتمتلكهَا وطردَ شُعوبًا كثيرةً من أمامكَ الحثيينَ والجرجاشيينَ والأموريينَ والكنعانيينَ والفرزيينَ و الحوينَ واليبوسيينَ سبع شعوب أكثرُ وأعظمَ منكَ . ودفعهُم الربُ إلهُكَ أمامكَ وضربتهُم فإنكَ تحرمهُم لا تقطُع لهم عهدًا ولا تشفق عليهِم ولا

---

[1] تثنية ٢٠ :١٦-١٨.

[2] خروج ٢٣: ٢٣-٢٥

[3] خروج ٣٤: ١١-١٤

[4] عدد٣٣ : ٥٠-٥٣

تصاهرهُم "[1]. ثم يقول " ... ولكن هكذا تفعلونَ بهم تُهدمونَ مذابحهُم وتُكسرون أنصابهُم وتُقطعون سواريهُم وتُحرقُون تماثيلهُم بالنارِ "[2].

"فعلم من هذه العبارات ، أن الله أمر بإهلاك كل ذي حياة من الأمم السبع ، وعدم رحمتهم ، وإبرام المعاهدات معهم ، وتخريب مذابحهم وكسر أصنامهم ، وإحراق أوثانهم ، وقطع مناسكهم ، وشدد في إهلاكهم تشديدا بليغا ، وقال إن لم تهلكوهم أ فعل بكم ما كنت عزمت أن أفعله بهم " [3].

ولكن ، كيف لهذا الإله الرحيم أن يأمر بإبادة جميع الشعب بما فيهم الأطفال الذين لا ذنب لهم ، بل كيف يأمر بقتل كل الحيوانات ؟ .

يبرر علماء تفسير الكتاب المقدس ذلك بأنه "كان عقابا للشعب الساكن في الأرض من أجل خطيئتهم ، وكان بنوا إسرائيل أداة الله لتنفيذ هذا الحكم . كما استخدم الله يوما ما الأمم الأخرى لعقاب بني إسرائيل من أجل خطئهم ... ومن الناحية الأخرى كان أمر الله يهدف إلى حماية بني إسرائيل من أن تكون أوثان هؤلاء الأعداء وفجورهم سببا في هلاك بني إسرائيل "[4].

و لم تكن الوحشية التي أمر الله بها بني إسرائيل مقتصرة على الأمم السبع ، بل إن أمما أخرى قد نالت ما نالته تلك الأمم السابقة . فالمديانيون وهم من الأمم الوثنية التي أوقعت بني إسرائيل في عبادة الأوثان ، أمر الله موسى -عليه السلام-

---

[1] تثنية ٧: ١-٦

[2] نفس المكان

[3] رحمة الله الهندي ، إظهار الحق ، (ط٢ ؛ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م) ص٤٨٢.

[4] بروس بارتون وآخرون ، التفسير التطبيقي ، ص٣٦٩.

بإنزال العقوبة الشديدة عليهم ، والإنتقام منهم شر انتقام بسبب أنهم كانوا هم السبب في ردة اليهود . إذ يقول العهد القديم "...فتجندُوا على مديانَ كما أمرَ الرَّبُّ وقتلُوا كلَّ ذكرٍ ومُلوكُ مديانَ قتلوهُم فوقَ قتلاهم : أوي وراقِمَ وصورَ وحورَ ورابعَ خمسةَ ملوكِ مديانَ . وبلعامَ بن بعورَ قتلوهُ بالسيفِ وسُبيَ بنوا إسرائيلَ نساءَ مديانَ وأطفالَهُم ونهَبُوا جميعَ بهائمهِم وجميعَ مواشيهُم وكلَّ أملاكِهم وأحرقُوا جميعَ مدنهم بمساكنهِم وجميعَ حصونهِم بالنارِ وأخذوا كلَّ الغنيمةِ وكلَّ النهبِ من الناسِ والبهائمِ"[1] ثم أمرهُم موسى بقتلِ"كلَّ ذكرٍ من الأطفالِ وكلَّ امرأةٍ عرفَت رجلاً بمضاجعةِ ذكرٍ اقتلوهَا"[2].

وقد استمر نفس الأسلوب في معاملة الوثنيينَ ، بعد موسى عليه السلام. فجميعُ الأنبياء الذين أتوا بعده تميزوا بالشدة والغلظة .بل إن طريقة قتلهم وتعذيبهم أشد فضاعة من كثير من الحكام الظلمة .

فهذا يشوع عليه السلام الذي تولى قيادة بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ، يأمر بإبادة كل من يسكن في مدينة أريحا من إنسان أو حيوان .يقول العهد القديم عن ذلك "وأخذُوا المدينةَ وحرَّمُوا كل ما في المدينة من رجلٍ و امرأةٍ من طفلٍ وشيخٍ حتى البقرَ والغنمَ والحميرَ بحدِّ السيفِ"[3]. بل إنه -عليه السلام- حسب ما تنقله لنا التوراة ، قد أعطانا الطريقة المثلى في كيفية قتل وتعذيب الأعداء .

---

[1] عدد ٣١ :٧-١٢.

[2] عدد ٣١ :١٧.

[3] يشوع ٦ :٢١-٢٢

فهو مثلا بعد أن قتل خمسة ملوك من أورشليم وحبرون ويرموث ولخيش وعجلون .أمر بتعليقهم"على خمسِ خشبٍ وبقوا معلقينَ على الخشبِ حتى المساءِ "[1].

وقد كانت جميع فتوحاته وحروبه تتسم بالعنف والبطش، وخاصة مع الكنعانيين .حتى أن الفيلسوف فولتير"بذا مندهشا من إبادة اليهود شعوب كنعان بلا رحمة وبأمر من الله"[2].

فهو عندما حارب ملوك الجنوب "لم يبقِ شاردًا بل حرّمَ كل نسمةٍ كما أمرَ الرّبُ إله إسرائيلَ"[3]. وفعل بملوك الشمال مثل ما فعله بملوك الجنوب ، يقول العهد القديم :"... وضربُوا كل نفسٍ بها بحدِ السيفِ حرّموهم و لم تبق نسمةٌ . وأحرق حاصورَ بالنارِ . فأخذَ يشوعَ كلَّ مدنِ أولئكَ الملوكِ وجميعَ ملوكهَا وضربهُم بحدِّ السيفِ حرّموهم كما أمرَ موسى عبدُ الرّبِ "[4].

وعلماء تفسير الكتاب المقدس ، دائما يبررون هذه الأفعال الإرهابية، بان كنعان و الأقوام السبعة كانت تمثل قمة الحضارة الوثنية الشريرة . وقد كانت مهمة اليهود القضاء على هذه الحضارة.كما أن من حكمة الله عز وجل في إبادة هذه الأقوام ، لإشارة واضحة ومباشرة إلى اليهود وما سوف يحل بهم إذا هم تولوا عن عبادة الله عز وجل إلى عبادة الأوثان .

وقد تكررت إبادة الأمميين عند جميع أنبياء اليهود . فهؤلاء أبناء يوسف عليه السلام نجدهم أنهم قد أبادوا مدينة لوز إبادة كاملة . و لم ينج منها إلا الرجل الذي

---

[1] يشوع ١٠: ٢٦-٢٧

[2], saint bible , 1/810

[3] يشوع ١٠ : ٣٩

[4] يشوع ١١ : ١٢-١٣

دلهم على مدخل المدينة . يقول العهد القديم :"فرأى المراقبونَ رجُلاً خارجًا مـــنَ المدينةِ فقالوا لهُ : أرنَا مدخلِ المدينةِ فنعمل معكَ معروفًا فأراهُم مدخَل المدينـــةِ . فضربُوا المدينةِ بحدِّ السيفِ وأمَّا الرجلُ وكلُّ عشيرتهِ فأطلقوهُم "[1] .وجـــاء عـــن صموئيل (SAMUEL)أنه نصح شاؤول (Saul)قائلا له : "فالآن اذهبَ واضـــرِب عماليقَ وحرِّموا كلّ مالهم ولا تعفُ عنهُم بل اقتُل رجلاً وامرأةً طفلاً ورضيعًا بقرًا وغنمًا حملًا وحمارًا "[2]. وهذه تمثل قمة الوحشية .

وقد نفذ شاؤول أوامر صاموئيل بصرامةتامة ،حيـــث لم يبـــق إلاعلـــى الحيوانات كغنائم حرب ، أما الشعب فقد ضربهم بالسيف كلهم .

وجاء أيضا عنه أنه عندما غزا الجيشوريين والجر زيـــين و العمالقـــة ، "لم يستبقِ رجلاً ولا امرأةٍ .وأخذَ غنمًا وبقرًا وحميرًا وجمالاً وثياباً "[3].

وقد فعل داوود –عليه السلام– بالأمميين نفس ما فعله شـــاؤول بهـــم . إذ يقول الكتاب المقدس "وضرب الموآبيينَ وقاسَهُم بالحبلِ أضـــجعهُم علـــى الأرضِ فقاسَ بحبلينِ للقتلِ وبحبلٍ للإستحياءِ وصارَ الموآبيونَ عبيدًا لداوودَ يقدمونَ هدايَا . وضربَ داوودَ هددَ عزرَ بن رحوبَ ملكَ صوبةَ حيث ذهبَ ليردَ سلطتهُ عند نهـــرِ الفراتِ . فأخذَ داوودُ مئهُ ألفاً وسبعَ مئةٍ فارسٍ وعشرينَ ألفَ راجلٍ "[4].

---

[1] قضاة ١ : ٢٤-٢٥

[2] صموئيل الأول ١٥: ٣-٥

[3] صموئيل الأول ٢٦: ٩

٤.صموئيل الثاني ٨ : ٢-٤

وجاء عنه أيضا "وهربَ أرامَ من أمامِ إسرائيلَ وقتلَ داوودُ من أرامِ سبع مئةِ مركبةٍ وأربعينَ ألفَ فارسٍ . وضربَ شوبكَ رئيسَ جيشه فماتَ هناكَ [1]" .

وجاء أيضا "فجمعَ داوودُ كلّ الشعبِ وذهبَ إلى ربّةَ وحاربها وأخذها وأخذَ تاجَ ملكهِم عن رأسه ووزنهُ وزنةٌ من الذهبِ مع حجرٍ كريمٍ وكان على رأسِ داوودَ . وأخرجَ غنيمةَ المدينةِ كثيرةً جدًا وأخرجَ الشعبَ الذي فيها ووضعهُم تحتَ مناشيرَ ونوارجِ حديدٍ وفؤوس حَديد وأمرهُم في أتونِ الآجرِّ وهكذا صنعَ بجميعِ مدنِ بني عمونَ [2]".

فانظروا إلى ما فعله هذا النبي من قتل شنيع ونهب فضيع وإهلاك كامل للقرى التي احتلها . وكانت هذه المجازر كما تقول التوراة هي من أمر الله عز وجل . فلم يكن داوود إلا أداة لتنفيذ أوامره الصارمة ضد الوثنيين . وكان داوود عليه السلام- كما تزعم التوراة- يعد هذه المجازر اللإنسانية والتي لا تصدر إلا عن الأقوام البربرية من حسناته . إذ يقول في أحد أدعيته إلى الله عز وجل"يُكافئُني الربُّ حسبَ برِّي ، حسبَ طهارة يديَّ يردُّ لِي . لأني حفِظتُ طرقَ الرَّبِّ ولم أعصِ إلهِي . لأن جميعَ أحكامه أمامِي وفرائضَهُ لم أُبعدهَا عن نَفسي "[3] "وقد شهد الله أن جهاداته وسائر أفعاله الحسنة كانت مقبولة عند الله "[4] إذ يقول العهد القديم

---

[1] صموئيل الثاني ١٠ : ١٨

[2] صموئيل الثاني ١٢ : ٢٩-٣١

[3] مزمور ١٦ : ٢٠-٢٣

[4] رحمة الله الهندي ، إظهار الحق ، ص٤٨٥.

وجاء عنه أيضا "وهربَ أرامَ من أمامِ إسرائيلَ وقتلَ داوودُ من أرامِ سبع مئةِ مركبةٍ وأربعينَ ألفَ فارسٍ . وضربَ شوبكَ رئيسَ جيشه فماتَ هناكَ [1]" .

وجاء أيضا "فجمعَ داوودُ كلّ الشعبِ وذهبَ إلى ربّةَ وحاربها وأخذها وأخذَ تاجَ ملكهِم عن رأسه ووزنهُ وزنةٌ من الذهبِ مع حجرٍ كريمٍ وكان على رأسِ داوودَ . وأخرجَ غنيمةَ المدينةِ كثيرةً جدًا وأخرجَ الشعبَ الذي فيها ووضعهُم تحتَ مناشيرَ ونوارجِ حديدٍ وفؤوس حَديد وأمرهُم في أتونِ الآجرِّ وهكذا صنعَ بجميعِ مدنِ بني عمونَ [2]".

فانظروا إلى ما فعله هذا النبي من قتل شنيع ونهب فضيع وإهلاك كامل للقرى التي احتلها . وكانت هذه المجازر كما تقول التوراة هي من أمر الله عز وجل . فلم يكن داوود إلا أداة لتنفيذ أوامره الصارمة ضد الوثنيين . وكان داوود عليه السلام- كما تزعم التوراة- يعد هذه المجازر اللإنسانية والتي لا تصدر إلا عن الأقوام البربرية من حسناته . إذ يقول في أحد أدعيته إلى الله عز وجل"يُكافئُني الربُّ حسبَ برِّي ، حسبَ طهارة يديَّ يردُّ لِي . لأني حفِظتُ طرقَ الرَّبِّ ولم أعصِ إلهِي . لأن جميعَ أحكامهِ أمامِي وفرائِضَهُ لم أُبعدهَا عن نَفسي "[3] "وقد شهد الله أن جهاداته وسائر أفعاله الحسنة كانت مقبولة عند الله "[4] إذ يقول العهد القديم

---

[1] صموئيل الثاني ١٠ : ١٨

[2] صموئيل الثاني ١٢ : ٢٩-٣١

[3] مزمور ١٦ : ٢٠-٢٣

[4] رحمة الله الهندي ، إظهار الحق ، ص٤٨٥.

وكلُ واحدٍ قريبهُ . ففعلَ بنو لاوي بحسبِ قولِ موسى ووقعَ من الشعبِ في ذلكَ اليومِ نحوَ ثلاثةَ آلافِ رجلٍ " [1].

ويأمر الرب موسى -عليه السلام- بأن يرجم كل يهودي يجده يعبد آلهة غير الله يقول العهد القديم " إذا وجدَ في وسطكَ في أحدِ أبوابك التي يُعطيكَ الرَّبُّ إلهُكَ رجلٌ أو امرأةٌ يفعل شرًا في عيني الرَّبِّ إلهَكَ . يتجاوز عهدهِ ويذهبُ ويعبدُ آلهةً أُخرى ويسجدُ لها أو للشمسِ أو للقمرِ أو لكلِ من جندِ السماءِ. الشيءَ الذي لم أوصِ بهِ وأُخبرتَ وسمعتَ وفحصتَ جيداً . وإذا الأمرُ صحيحٌ أكيدٌ قد عُملَ ذلكَ الرجسُ في إسرائيلَ فأخرِج ذلكَ الرجلِ أو تلكَ المرأةُ الذي فعلَ ذلكَ الأمرَ الشريرَ إلى أبوابك الرجلَ أو المرأةَ وارجمهُ بالحجارةِ حتى يموتَ " [2].

وجاء أيضا عن النبي أشعيا قوله :" وامتلأَت أرضُهم أوثانًا يسجُدونَ لعملِ أيديهِم لما صنعتهُ أصابعهُم وينخفضُ الإنسانُ وينطرحُ الرجُلُ فلا تغفِر لهُم"[3].أي لعبدة الأصنام.

وبهذا يتبين لنا أن العهد القديم قد وقف موقفا معارضا للأمم الأخرى ، ونظر إليهم نظرة احتقار وعنصرية . ولذا استحل جميع الوسائل الغير المشروعة ضدهم كالقتل والتعذيب والتشريد والغدر والنهب ... وهذا نجده في مواضع كثيرة في العهد القديم . ففي سفر الخروج مثلا جاء أن الرب أوصى موسى بقوله له "وأُعطي نعمةً لهذا الشعبِ في عيونِ المصريينَ فيكُونُ حينما تمضونَ أنكم لا تمضونَ فارغينَ . بل تطلب كلُّ امرأة من جارتهَا ومن نزيلةِ بيتهَا أمتعةً فضةٍ وأمتعةَ

---

[1] خروج ٣٢ : ٢٦-٢٨

[2] تثنية ١٧ : ٢-٦

[3] إشعيا ٢ : ٨..

ذهبٍ وثيابًا وتضعونهَا على بنيكُم وبناتكُم فتسلبونَ المصريينَ "[1]. وجاء أيضا "تكلم في مسامعِ الشعبِ أن يطلبَ كلُّ رجلٍ من صاحبهِ وكلُّ امرأةٍ من صاحبتهَا أمتعةَ فضةٍ وأمتعةَ ذهبٍ وأعطى الرَّبُّ نعمةً للشعبِ في عيونِ المصريينَ"[2].

وجاء أيضا " وفعلَ بنوا إسرائيلَ بحسبِ قولِ موسى طلبوا منَ المصريينَ أمتعةَ فضةٍ وأمتعةَ ذهبٍ وثياباً وأعطى الرَّبُّ نعمةً للشعبِ في عيونِ المصريينَ حتى أعاروهُم فسلبوا المصريينَ"[3].

وبهذا يتضح لنا أن التسامح مع الأمميين ، ليس له ذكر أو أثر في الكتاب المقدس لا عند اليهود ولا عند النصارى . ولهذا فهم دائما ينظرون إليهم نظرة عداء . انطلاقا من أن العالم عندهم قسمان ، قسم المؤمنين وقسم الكافرين . ومن لم يكن من القسم الثاني فهو في نظر العهد الجديد ضد القسم الأول . يقول عيسى عليه السلام " من ليسَ معي فهُو ضِدي " كما أنه دعا إلى بغض كل قريب أو صديق لا يؤمن به إذ يقول "إن كانَ أحداً يأتي إليَّ . ولا يبغضُ أباهُ وأمهُ وامرأتهُ وأولادهُ وإخوتهُ وإخوانهِ حتى نفسهِ أيضًا فلا يقدرُ أن يكونَ لي تلميذًا " [4].

ولكن قد يتساءل واحد من الناس ويقول إن العهد الجديد خاصة يحتوي على بعض الآيات التي تدعوا إلى محبة الغير . وعيسى عليه السلام كما هو معروف عنه قد دعا طوال حياته إلى التآلف والمحبة .

والجواب على هذا السؤال يكون كالتالي:

---

[1] خروج ٣ : ٢١-٢٢.

[2] خروج ١١ : ٢-٣.

[3] خروج ١٢ :٣٥-٣٦.

[4] لوقا ١٤: ٢٥.

مما لا شك فيه أن المسيحية قد طرأ عليها تغيير وتبديل من طرف بولس أولا ونهاية بأوغسطين ورجال الكنيسة .فالأول أوجد نوعا من التعصب ضد الأديان الوثنية . والآخرون ساهموا في إعطاء تفسيرات وتأويلات للإنجيل مخالفةلمعناه الحقيقي . ولهذا يجد القارئ للعهد الجديد تناقضا واضحا وبينا بين آياته . فمن هذه الآيات مثلا قول عيسى –عليه السلام– " طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون"[1]، وقوله:" ولا تظنُوا أنيِّ جِئتُ لأُلقيَّ على الأرضِ سلامًا بل سيفًا"[2].

ولهذا فـ"ليس من المنطق في شيء أن يكون السيد المسيح نفسه ، مسؤولا عن الذي أضافته الكنيسة أو رجالها إلى الديانة المسيحية ،فكثير مما أضافوه يتنافى مع تعاليم المسيح نفسه . فالحروب بين المسيحيين ، وذبح المسيحيين لليهود يناقض تماما كل الذي دعا إليه السيد المسيح"[3] و"ولو عاد السيد المسيح إلى الحياة لفزع من هذه الجرائم التي ارتكبت باسمه وبين المؤمنين به "[4]. ولعل الاضطهاد الذي مارسته الكنيسة في إسبانيا على المسلمين ، يعد من هذه الجرائم البشعة .

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نخرج بعدة نتائج وملاحظات أهمها مايلي:

١–الاضطهاد له أسباب ودوافع عديدة ،يمثل العامل الديني أبرز هذه الأسباب قديما وحديثا.بدليل أن جل الاضطهادات التي سلطت على المخالفين كان

---

[1] متى٥ : ٩.

[2] متى ٥: ١٠

[3] مايكل هارت ، الخالدون ، ترجمة: أنيس منصور(ط١؛ مصر : المكتب المصري الحديث ، ١٩٨١ م) ، ص٢٤.

[4] ، المرجع نفسه ، ص٢٩ – ٣٠.

منشؤها ومنبعها الكراهة الدينية المتعصبة.ونحن لا نلغي دور العوامل الاقتصادية والسياسية...في حدوث الاضطهاد.ولكن يظل الدين هو أكبر العوامل على الإطلاق،في نشوب الحروب بين الشعوب.

٢-من خلال تتبعنا واستقرائنا للنصوص الإنجيلية وأقوال كبار رجال الدين المسيحي في نظرتهم للأديان الأخرى،فإننا نقرر أن لهم نظرة عدائية متعصبة،لا تختلف بالكلية عن نظرة اليهود للأمميين. ولهذا لم يسجل لنا التاريخ أن المسيحيين قد أحسنوا معاملة رعاياهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

المورسكيون ومحاكم التفتيش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: إسبانيا قبل وبعد الفتح الإسلامي

المطلب الأول: إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

هناك شبه إجماع بين المؤرخين، على أن أصل القوط (GOTHS) من القبائل البربرية المتوحشة التي نزحت من شمال أوربا، و احتلت في طريقها العديد من المناطق الأوربية، كانت إسبانيا هي آخر ها[1]. بعد أن كانت تحت سيطرت الو ندال، و الألبيين ، و السوابيين ،- و هم أيضا من القبائل البربرية -.

وقد عجزت الدولة الرومانية عن محاربتهم، و القضاء عليهم، و لاقت صعوبة كبيرة في ذلك، فأوكلت هذه المهمة إلى تيودريك الأول (TIODORIC) ملك القوط (GOTHS)، بشرط أن يحتفظ بإسبانيا إذا هزم تلك القبائل .

و بالفعل فقد انتصر عليهم في ٤٥٦ م ، و كلل هذا الإنتصار بانتصارات أخرى في معارك كثيرة .

و باختصار ، فلم تأت نهاية القرن الخامس ميلادي، إلا و كانت إسبانيا كلها تحت الحكم القوطي (GOTHS) إذ " امتد ملكهم من اللوار إلى شاطيء إسبانيا الجنوبي . ولكن الفرنج غزوهم من الشمال و أجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل ".[2]

---

[1]. أنظر : ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب ، تحقيق : رينجرت دوزي ، (دط) ؛ بيروت : دار صادر ، (دت) (٣/٢)

[2] عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس .(ط، ، مصر : مطبعة المدني ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م) ،(٢٩/١)

و بهذا ، دخلت إسبانيا في مرحلة جديدة ، تختلف عن المرحلة الأولى . في بعض الأشياء فقط . فقد اندمجوا اندماجا كليا في الثقافة الرومانيـــة . فـــاعتنقوا النصرانية في بداية أمرهم على

مذهب آريوس (ARIUS) [1]، و اتخذوا اللغة اللاتينية لغة رسمية فهي : لغة الإدارة ، والاقتصاد ،و السيـــاســـة ، و خضعـــوا بذلك "لـــسلطان الحـــضارة الرومانية"[2].

و لكن رغم هذا الانصهار في الثقافة الرومانية ، إلا أنهم لم يمتزجوا بالسكان " ذلك الإمتزاج الذي يجعل الغالب و المغلوب ، و الحاكم و المحكوم أمة واحدة ، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة و السيادة ، و ينعمون بإحراز الإقطاعات و الضياع الواسعة " [3]. يساندهم في ذلك رجال الكنيسة ، و الذين هم بـــدورهم كان لهم النصيب الأوفر في إحراز الأراضي الواسعة ،و الأموال الكثيرة، و السلطة المطلقة. في حين كان الشعب ، يعيش في بؤس و شقاء لا نظير له. و خاصة طبقة العبيد ، الذين كانوا يعتبرون ملكا لأسيادهم ، يتصرفون في حيـــاتهم ،و ممـــاتهم كيف ما شاءوا ، و يستغلونهم أسوأ استغلال .

---

[1] آريوس(ARIUS) هو زعيم الطائفة الآريوسية ،ولد في ليبيا وقيل في الإسكندرية نحـــو ســـنة ٢٥٦ م . ترقى في المناصب الكنسية، حتى أصبح رئيس الكنيسة في الإسكندرية . رفض عقيـــدة التثليث وكان يقول أن الله واحد أبدي غير منقسم ، وأن الكلمة و روح القدس خلق من خلائقه . أنظر : بطرس البستاني ، كتاب دائرة المعارف ، (دط) ، لبنان: مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان ، (دت)(٦٥٦٨/١).

[2] غوستاف لوبون، حضارة العرب ، ت : عادل زعيتر (ط٣ ؛(دم)، ١٩٥٦ م) ، ص٢٦٣ .

[3] عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس ، (٣٠/١)

أما التجار و الحرفيون الصغار ، فقد أرهقتهم الضرائب الباهظة، و التي كانت تؤخذ منهم بالقوة ، فتزيد من شقائهم و بؤسهم . و كانوا هم المعنيين بالدرجة الأولى بالحروب التي تتعرض لها إسبانيا.

كمالا يجب أن ننسى اليهود ، والذين تعرضوا لبطش الكنيسة وظلمها، خاصة بعد أن تبنى الملك ريكاريدو(Recordo) المذهب الكاثوليكي مذهبا رسميا للدولة[1] .فأجبر اليهود على اختيار أحد أمرين : إما الطرد أو اعتناق النصرانية . فاختار كثير منهم الثانية نفاقا منهم. و لكن اكتشفت الكنيسة الأمر بعد ذلك . فزادت من اضطهادهم ، والتنكيل بهم . و عقدت لذلك مجمع طليطلة و أصدرت فيه بعض القوانين الظالمة : كنزع أملاكهم ، و اعتبارهم عبيدا للملك ، و تربية أبنائهم على النصرانية .

و بهذا، أصبح اليهودي القح أحسن حالا من اليهودي المتنصر . و لهذا " السبب رحبوا فيما بعد بالفتح الإسلامي " [2] . وساهموا فيه مساهمة كبيرة ،بعد أن وجدوا في الفاتحين صفة الرحمة و العدل . و التي فقدوها أيام الاستعمار القوطي(GOTHS).

---

[1] يقول موريس لومبار (Mouriss Loumbar) : " ... و قد كان وضع اليهود في عهد الملوك الآريين محتملا ، و لكن هذا الوضع تغير في عهد الملوك الكاثوليك ، و لا سيما في عهد ركارد ، حيث كان اليهود يتعرضون للاضطهاد " . أنظر : الإسلام في مجده الأول القرن ٨ – ١١ م ، ترجمة و تعليق : إسماعيل العربي ، (ط١ ؛ الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٧٩ م) ، ص ١١٧ . و انظر أيضا : جون بجون جلوب ، ، إمبراطورية العرب ، تعريب : خيري حماد (ط١ ، سوريا ، دار الكتاب. ١٩٦٦) ص ٢٤٩.

[2] – وليام لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة : د/ محمد مصطفى زيادة (دط)؛(دت)؛(دم) ص ٤٦٦ .

أما الجيش القوطي(GOTHS) فقد ركن إلى الراحة و الكسل ، وفقد الروح العسكرية التي اشتهر بها . فلم تعد تعنيه الحروب وتجريد السيف في وجه العدو، مما نتج عن ذلك ظهور الفتن و الاضطرابات الداخلية ، والتي تنذر بقرب زوال مملكة القوط(GOTHS).فاجتمعت هذه العوامل و الأسباب ، التي كانت تنذر بقرب زوال الدولة القوطية ، وخاصة أن المسلمين كانوا في قمة حماسهم الديني ، وكانوا يتطلعون إلى فتح المزيد من البلاد و إدخال الناس في الدين الجديد .وبالفعل ، فما هي إلا سنوات قليلة إلا وكان العرب في إسبانيا." [1]

المطلب الثاني : الفتح الإسلامي لإسبانيا

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي، يحكمها ملك يدعى غيطشة (Witizo) و كان ظالما طاغيا ، منغمسا في الشهوات. في حين كان شعبه يعاني الفقر و البؤس. فأدى ذلك إلى الثورة عليه،بقيادة ردريك (Rodrig) تؤيده في ذلك الكنيسة وبعض الأشراف. و قد انتصر عليه،و عين ملكا جديدا على إسبانيا . و كان من " أقوى حكام إسبانيا " [2]. إلا أنه كان طاغية فاسدا ، فرض على شعبه

---

[1] عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس .(ط٤ ، مصر : مطبعة المدني ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م) ، (٢٩/١)

[2] – روم لاندو ، الإسلام و العرب، تعريب : منير البعلبكي (ط١ ؛ بيروت : دار العلم للملايين ،١٩٦٢م) ، ص ١٧٠ – ١٧١ .

٢-أنظر : مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس و ذكر أمرا ئها رحمهم الله و الحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، (دط) ؛ القاهرة : دار الكتاب المصري و بيروت : دار الكتاب اللبناني ، (دت) ص ١٦ . و أنظر : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، فتوح

العبودية والظلم ، و جعله يعيش في فقر مدقع . مما زاد في كره الشعب له ، فثـــار عليه في نهاية الأمر أبناء خصمه غيطشة (Witizo) . يدعمهم في ذلك ملك سبتة يوليان (Julin) والذي كان من أشد خصوم ريدريك(Rodrig) ، وكان يـــتحين الفرصة للانقضاض عليه . وخاصة بعد أن أرسل يوليان (Julin) ابنته إلى طليطلـــة عاصمة القوط (Goths) لأخذ قسط و ا فر من العلم والتربيـــة في قـــصر ريـــدريك (Rodrig)- شأن نظام تربية الأشراف في ذلك الوقت – فافتتن هذا الملـــك بهـــا ، فاغتصبها و انتهك حرمتها . فكتبت البنت إلى أبيها تخبره بما فعل بها هذا الملك . فغضب يوليان(Julin) غضبا شديدا ، و أقسم على الانتقام منه[1] . و لم يجد مـــن يستنجد بهم إلا المسلمين في المغرب العربي . فاتصل بطارق بن زياد عارضا عليـــه فتح إسبانيا. وزين له الفوائد العظيمة التي سيجنيها من وراء هذا الفتح.و مؤكدا له سهولة الفتح، نظرا للخلافات السياسية الكبيرة التي كانت تعيشها إســـبانيا في تلك الفترة العصيبة .

فأرسل موسى بن نصير ، رسالة إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستـــشيره في الأمر فأشار عليه أن يختبر الأمر ببعض السرايا و الجيوش . فما كان من موسى بن نصير إلا أن أرسل سرية بـــ ٥٠٠ شخص يقودهم طريـــف بـــن مالـــك في رمضان ٧١٠ م[2] . و قد نجحت هذه السرية في مهمتها و غنمت غنائم كبيرة.

أفريقية و الأندلس ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع(دط) ؛ بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٤)، ص ٧٢.

١-أنظر: مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة، ص١٦ . وأنظر أيضا : إبراهيم بيضون ، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (ط٣؛ بيروت : دار النهضة ،١٩٨٦) ، ص٧٣.

فتشجع موسى بن نصير بعد هذا الاستطلاع و صمم على فتح إسبانيا. فجهز جيشا بقيادة طارق بن زياد البربري في شهر رجب ٩٢ هـ (أبريل ٧١١ م) . يقدر بسبعة آلاف مقاتل . على سفن يوليان(Julin).وقد نزل هذا الجيش أولا بجبل طارق ، ثم استطاع عبد الملك بن أبي عامر الاستيلاء على قرطاجنة (Cartgene) . ثم سار الجيش جنوبا فاحتل الجزيرة الخضراء . وأصبح بذلك الطريق آمنا لعبور المسلمين .

فانتبه الملك ريدريك (Rodrig) للخطر الداهم على مملكته ، فجهز جيشا ضخما من الأشراف و الأمراء و رجال الدين ، و حتى المعارضين لحكمه من ابناء غيطشة(witizo). و التقى هذا الجيش بجيش طارق عند مصب نهر الباربـاط في شهر رمضان ٩٢ هـ (١٧ يوليه سنة ٧١١ م) . ودارت معركة عظيمة بين الجيشين ، إنهزم في نهاية الأمر الجيش الإسباني هزيمة نكراء ،وقد أطلق على هذه المعركة الفاصلة شذونة(Sedonio) [٣] والتي بفضلها دالت دولة القوط(Goths) . وتساقطت بعدها المدن الإسبانية الواحدة تلو الأخرى بسهولة تامة . ففتحت قرطبة

٢- هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ، ولد سنة ٥٠ ه وبويع له بالخلافة سنة ٨٦ للهجرة . اشتهر بكثرة البناء والفتح ، فهو الذي بنى مسجد دمشق ، ومسجد المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى وكان يختم القرآن كل ثلاث ليال، ولكنه شب بلا أدب ، كما أنه كان لايحسن العربية . مات سنة ٩٦ ه وعمره ٧٢ سنة . أنظر: ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، (ط٥ ؛ بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥ ه – ١٩٨٥ م) (١٣٧/٤) وانظر أيضا : أبا الفداء الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية ،(دط) ؛ بيروت : درا الفكر (دت)(١٦١/٩-١٩٢)

بقيادة مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك[1] ، ثم أرسلت حملات متتابعة إلى مدن وحصون كثيرة ، في جميع أنحاء إسبانيا ، كللت كلها بالنجاح . فسقطت مالقة ، وغرناطة، وألبيرة ، ثم مدينة مرسية . ثم اتجه طارق بن زياد إلى عاصمة القوط(Goths) طليطلة ففتحها . وبعد أن وصل خبر الانتصارات الباهرة التي حققها الجيش الإسلامي في إسبانيا إلى موسى بن نصير في المغرب العربي، جهز هو أيضا جيشا كبيرا قوامه عشرة ألاف مقاتل .فنزل أولا في الجزيرة الخضراء في رمضان ٩٣ هـ (يوليه سنة ٧١٢ م) ، وبدأ جهاده بفتح مدينة شذونة(Sedonio) ، ثم قرمونة ، ثم سار إلى إشبيلية – أعظم المدن الإسبانية– ففتحها بعد شهر من الحصار . في رمضان وقيل في شوال سنة ٩٤ هـ .ثم توجه إلى طليطلة فالتقى بطارق بن زياد هنالك . وتنقل لنا المصادر التاريخية أنه وبخه وعزله عن منصبه . و لكنه في الأخير عفا عنه ، و أعاده إلى منصبه القديم .

ثم توجه الاثنان إلى فتح المدن الأخرى في الشمال الشرقي" فافتتحا سرقسطة، و طركونة ، و برشلونة، و غيرها من المعاقل "[2] . ثم افترقا ، فتوجه طارق شرقا لفتح جليقية، و موسى شمالا ففتح ولاية لانجدوك ، و قرقشونة، و أريونة ، حتى وصل إلى مدينة ليون في جنوب فرنسا .و في هذا الحماس الديني ،

٣- ذكرها العديد من المؤرخين في كتبهم مثل : حسين مؤنس ، فجر الأندلس ط٢؛ السعودية : دار السعودية ، (دت) ، وانظر أيضا: الطبري تاريخ الأمم والملوك (ط٣ ؛ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١١ هـ -١٩٩١ م) (١٩/٤)

[2] – عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس(٥٢/١)

راودت موسى بن نصير فكرة الذهاب إلى دمشق عن طريق القسطنطينية[1] ، و إخضاع باقي الأمم النصرانية لسلطة الإسلام .خاصة وأنها كانت تعيش في حالة الضعف و الانقسام . و لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، بعث إلى موسى بن نصير برسالة يأمره فيها بالعودة فورا إلى دمشق هو و طارق بن زياد . فما كان منهما إلا أن خضعا لأمر الخليفة.

ورجع الاثنان في شهر ذي الحجة من خمس وسبعين للهجرة (أ غسطس ٧١٥ م) محملين بالغنائم العظيمة .

وقد تولى أمر المسلمين بعد موسى بن نصير ابنه عبد العزيز. وهو يعد بحق واضع اللبنة الأخيرة في استكمال الفتح الإسلامي في إسبانيا فأخمد الثورة التي اندلعت في إشبيلية ، وفتح المنطقة الساحلية الواقعة بين مالقة وبلنسية . وبذلك أصبحت إسبانية كلها تحت الحكم الإسلامي ، سوى بعض المناطق الجبلية الواقعة في الشمال والشرق[2] استهان بها المسلمين.

وقد سلك الوالي الجديد عبد العزيز سياسة التسامح والرحمة مع جميع الرعية، حتى ولو كانوا على غير الملة الإسلامية ، والوثيقة التالية تكشف لنا بوضوح صدق ما نقول، وهي معاهدة جرت بينه وبين الملك تيودمير(THEODMIR0) جاء فيها :" نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير عبدوس

---

[1] – يقول غوستاف لوبون : "... فلو وفق موسى بن نصير لذلك ، لجعل أوروبة مسلمة. ولحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية ، ولأنقد أوروبة على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى ..." أنظر: حضارة العرب ، ص٢٦٧ .

[2] –أنظر : أحمد مختاري العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، (دط) ؛ الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٧) ، ص٣٨.

— بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز إلى تدمير : أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته ، أن لا يترع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون على ترك دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ما تعبد ونصح "[1]. وهذه الوثيقة قد ترجمها وطبقها وسار عليها جميع الأمراء والخلفاء الذين تولوا شؤون الأندلس بعد عبد العزيز . وأعطوا أروع الأمثلة في التسامح مع أهل الذمة ،وحسن معاملتهم .و لم ينقل لنا التاريخ أن المسلمين قد خانوا أو غدروا ، العهد الذي ألزموا به أنفسهم تجاه أهل إسبانيا ، من المسيحيين ، و اليهود ، و عبدة الأوثان . بل كانوا مضرب المثل في الوفاء بالعهد .

المطلب الثالث : معاملة الفاتحين للمسيحيين

إن الفتح الإسلامي لإسبانيا يعد بحق وصدق نعمة عظيمة ، على أوروبا عامة وعلى الشعب الإسباني خاصة . وهذا راجع إلى الأثر الكبير الذي خلفه هذا الفتح الإسلامي . فقد ساهم في القضاء على الحكم القوطي الفاسد و الذي عانى منه الشعب معاناة كبيرة. كما أنه قضى على نفوذ الأمراء ، والأشراف ، والنبلاء ، ورجال الدين . والذين كانوا من المساهمين بالدرجة الأولى في إذلال و إفقار الشعب الإسباني .

وقد حل العرب مكان ذلك العدل و التسامح ، و الازدهار و التطور . واستفادت منه جميع شرائح المجتمع ، بما في ذلك الأقليات الدينية من اليهود

[1] – عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (١/٥٥)

والنصارى والوثنين . والسبب في ذلك أن المسلمين لم يفتحوا إسبانيا لنهب ثرواتها أو خيراتها ولا لظلم أهلها ؛ بل لنشر العقيدة الإسلامية . و التي هي بدورها تلزمهم على احترام المخالفين في العقيدة، و سلوك سياسة العدل معهم ؛ بشرط دفع الجزية و الخراج ، وهذا مقابل حمايتهم والدفاع عنهم .

وبهذه السياسة المثالية في معاملة أهل الذمة ، لم يسجل التاريخ الإنساني أن المسلمين في إسبانيا أو غيرها ، قد استولوا على ممتلكات أهل الذمّة ، أو منعوهم من ممارسة شعائرهم الدينية بل " لقد وضع الإسلام حدا للاضطهاد القائم بين المسيحيين أنفسهم في الأندلس . فكفل لهم حرية العقيدة ، فصار المسيحي يفصح عن رأيه في شؤون دينه غير ملق بالا للكنيسة أو رجال الدين الذين لم يستطيعوا في ظل الحكم الإسلامي تطبيق ما كانوا يطبقونه قبل الفتح على مخالفيهم من أذى و اضطهاد ، و سجن و تشريد و عقاب ، يصل إلى حد القتل . و كل الذي استطاعوا فعله المجادلة و الحوار "[1]. فترك العرب للنصارى كنائسهم و معابدهم ، و لم يتعرضوا لهم بأي أذى و لم يتدخلوا في شؤون دينهم . فكان النصارى ينصبون رجال الدين بدون أي تدخل من الدولة الإسلامية . كما كانوا أيضا يسمحون لهم أن ينصبوا رئيسا لهم للنظر في شؤونهم الخاصة يدعى القمس .

و هذه حقائق تاريخية لم يستطع أحدا من المؤرخين إنكارها – حتى المتعصبون منهم - أو تجاهلها . بل يعترفون بذلك و يعتبرونها من أعظم مزايا العرب الخالدة .

---

[1] – مصطفى الشكعة ، المغرب و الأندلس (ط١ ؛ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٢) ، ص ٦٦ .

أما اليهود ، فقد عوملوا معاملة حسنة و لاقوا تسامحا مطلقا. لم يعرفوه في تاريخهم الطويل منذ سقوط أورشليم . ففسحت لهم الدولة المجال للعمل في أي مجال من المجالات الإقتصادية أو التجارية . وترقوا إلى المناصب الإدارية العليا ، وظهر منهم,الكثير من العلماء والفقهاء . وتخلصوا نهائيا من الأسوار التي كانت تحيط بأحيائهم أيام الحكم القوطي.

هذا الفتح العظيم قد جلب بدوه نتائج إيجابية ، على الشعب الإسباني على اختلاف مله وسلمه الاجتماعي.

و بهذا يتضح لنا ، أن النصارى قد استفاد من هذا الفتح استفادة لا تقدّر بثمن . مما أدى إلى رضاهم عن الحكم الإسلامي ، و لم تراودهم فكرة الثورة أبدا . و هذا يعتبر من أكبر الشواهد على التسامح الإسلامي .

و لا يجب أن نختم هذا الموضوع ، دون أن نذكر شهادات حية من مؤرخين منصفين ، أشادوا كلهم بعظمة التسامح الإسلامي مع أهل الذمة .

يقول غوستاف لوبون (Gustave le bon): " و أحسن العرب سياسة سكان إسبانيا ، كما أحسنوا سياسة أهل سوريا و مصر . فقد تركوهم و أموالهم ، و كنائسهم ، و قوانينهم وحق القضاء للقضاة منهم . و لم يفرضو سوى جزية سنوية تبلغ دينارا (١٥ فرنكا) عن كل شريف و نصف دينار على كل مملوك . فرضي سكان إسبانيا بذلك طائعين " [1]

و يقول المؤرخ الكبير فيليب حتى(Philipe hatta) : "... أما الخطة التي سلكها الفاتحون العرب في معاملة رعاياهم في الأندلس فلم تختلف كثيرا عن خطتهم في البلدان الأخرى التي فتحوها. فقد وضعت الجزية على النصارى و

[1] - حضارة العرب ، ص ٢٦٦

اليهود دون غيرهم. و كانت تتراوح بين اثني عشر و أربعة و عشرين و ثمانية و أربعين درهما في السنة . و ذلك بالنسبة لمقدرة المكلف المالية و قد أعفي من الجزية النساء و الأحداث و الشيوخ و المعوزون ، و مثلهم الرهبان و المصابون بالأمراض المزمنة "[1].

و يقول المؤرخ روم لاند (Romland) :" ... لقد منحت حرية دينية كاملة ، و لم يطلب عنها ، إلا دفع جزية على الرؤوس percapito مقدارها دينار ذهبي واحد "[2].

و يقول دوروثي لودر(Dornier lodre) : " ...كانت معاملتهم للإسبان أرفق و أرحم معاملة لقيها شعب مهزوم على يد فاتحيه " [3].

و يقول جوزيف ماك كيب(Joseph mach ceep): "... كان أهل الأديان جميعا يعاملون بالحسنى ، و كان على اليهود و النصارى فريضة مالية قليلة تخصهم . و كانوا يتمتعون بحماية حقوقهم " [4].

و يقول ستانوودكب(Stan woodcap):"... و على كل حال لم يتعرض أحد لمن شاء أن يبقى على مسيحيته و لم تمس حياته أو ممتلكاته بسوء . بل تزايد

---

[1] – تاريخ تاريخ العرب ، ترجمة : د/ أدورد جرجي ، و د/ جبرائيل جبورج (ط٤ ؛ (دم): دار الكشاف، ١٩٦٥ م) (٦٠٧/٢)

[2] الإسلام والعرب ، ص١٧٢ .

[3] – إسبانيا شعبها وأرضها ، ترجمة: طارق فودة (دط) ؛ القاهرة – نيويورك: مؤسسة فرانكلين ، ١٩٦٥،ص٥٠

[4] – مدينة المسلمين في إسبانيا ، ترجمة : الدكتور محمد تقي الدين الهلالي ،(ط٢ ؛ القاهرة: مكتبة المعرف ١٩٨٥م)، ص ٥٤

حظ أولئك المسيحيين من الدنيا " [1] . ثم يعقب عن وضع اليهود: "... أن اليهود لم يتمتعوا منذ سقوط أورشليم بمثل هذا الأمن الذي تمتعوا به في ظل خلافة قرطبة " [2] .

فهذه شهادات كافية لإبراز التسامح الذي لقيه أهل الذمة في الأندلس . و أصبح هذا الأمر كما يقول ليفي بروفينسال (levi – provencial) لايماري فيه أحد". [3]

المطلب الرابع : ازدهار الأندلس

بعد أن تم القضاء على الحكم القوطي نهائيا ، وأستتب الأمن في كافة ربوع الأندلس ، اتجه حكام المسلمين إلى البناء والتشييد ، شمل جميع الميادين والمجالات . فما إن حل قرن على ذلك إلا وظهر الرخاء الاقتصادي والتقدم الحضاري .وتمّ

---

[1]- المسلمون في تاريخ الحضارة ترجمة الدكتور محمد فتحي عثمان ط١ السعودية:الدار السعودية ، ١٩٨٢ ص٦٢

[2]- نفس المكان .

[3] حضارة العرب في الأندلس ،ت دوقان قرقوط،((دط) بيروت : مكتبة الحياة، (دت))،ص٧٩ وليفي بروفينسال (levi – provencial) مستشرق فرنسي من أسرة يهودية، ولد في الجزائر سنة ١٨٩٤ م. وجه عنايته إبتداء من سنة ١٩٢٨ إلى الاهتمام بالتاريخ العربي وبوجه التحديد التاريخ الأندلسي .حاضر في العديد من الجامعات العالمية وألف الكثير من الكتب التاريخية أهمها واشهرها الحضارة العربية في إسبانيا المسلمة في القرن العاشر صفة جزيرة الأندلس. مات سنة ١٩٥٥ في باريس . أنظر:عبد الرحمن بدوي،موسوعة المستشرقين ، (ط٣بيروت دار العلم للملايين ، ١٩٩٣ م،ص٥٢٠ . وانظر أيضا : خير الدين الزركلي الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، (ط٧؛ بيروت: دار العلم للملاين ، ١٩٨٦ م)، ص٣٤ –٣٥ .

من جراء هذا التقدم استفاد جميع فئات المجتمع ، وفي مقدمتهم اليهود والنصارى . وأصبحت الأندلس منارة حقيقية تضيء في أوروبا بأكملها.

والشيء العجيب في هذه الحضارة الإسلامية أن اليهود والنصارى كان لهم الدور البارز في تطورها و ازدهارها . فقد برعوا في جميع العلوم والفنون . وأصبحوا أساتذة كبارا فيهما .كما أنهم سيطروا على التجارة والصناعة بشكل كبير ، لا يعترضهم طريقهم في ذلك أحد لا من الدولة ولا من الشعب . وبمرور الوقت أصبحوا من أغنياء الأندلس ومن ملاك أراضيها الزراعية.

وبسبب هذه المعاملة الحسنة والتقدم الكبير الذي عاشته الأندلس طوال قرون عديدة . تأسف بعض الكتاب الأذكياء على توقف الفتح الإسلامي في إسبانيا إذ لو امتد هذا الفتح لجنب أوروبا القرون المظلمة التي مرت بها ، والتي لم تنج منها إلا إسبانيا . إذ كانت في تلك القرون مدينة عظيمة في التقدم الحضاري.

فالزراعة بلغت قمة التطور والازدهار ، إذ لم يترك العرب شبرا واحدا من الأراضي إلا واستغلوه أحسن استغلال . كما أنهم أدخلوا الكثير من الأشجار والنباتات التي لم تكن معروفة من قبل كالأرز والقصب السكري ، والزيتون والبرتقال [1].... وأصبحت تصدر إلى الخارج ، وخاصة الزيتون التي كانت اشبيلية

١- أنظر: فيليب حتى ، تاريخ العرب (٦٢٩/٢) وانظر : زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دسوقي ، مراجعة : مارون عيسى الخوري ، (ط١ ؛ ب زعيتر (دط) ؛ بيروت : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٦٧ هـ -١٩٤٨م) ، ص٣١٥.

وحدها تحتوي على نحو "مئة ألف معصرة لاستخراج الزيتون:)[1].وبفضل هـــذه السياسة الناجعة " كانت الأرض في زمن عبد الرحمن تنتج ثلاثة أو أربعة مواسم في كل عام" [2].و هذا ما لم تصله أغلبية الدول في وقتنا الحاضر . وباختصار أصبح الزائر للأندلس يجدها كأنها "حديقة غناء."[3]

كما سارت الصناعة جنبا إلى جنب مع الزراعة ، فنشط الميدان الـــصناعي وفتحت الآلاف من المصانع ، وظهر الآلاف من الدباغين والحـــائكيين وصـــناع السجاد والسيوف . و تطورت صناعة الخزف والأواني المنقوشة...

كما اعتنى العرب باستخراج جميع المعادن الموجودة تحت الأرض ، كالحديد ، والنحاس والزئبق. وكانت تصدر إلى جميع مناطق العالم وخاصة إفريقيا .

ونتج عن تطور الصناعة والزراعة ، نشاط تجاري كبير .فكثـــرت صـــناعة السفن والأساطيل البحرية .وكان اليهود هم سادة هذه التجارة خاصة .

وبفضل هدا النشاط الاقتصادي والرخاء الاجتماعي ، أصبحت الأنـــدلس مأهولة بالسكان . إذ كانت تضم أكبر تجمع سكاني في أوروبا. فقرطبة وحـــدها كانت تحتوي على ١١٣ألف منزل ، و٦٠٠مسجد ، و ٣٠٠ حمام ، و٨٠ مدرسة ، و١٧ مدرسة عليا ،و٢٠مكتبة عمومية .كما كانت تحتوي أيضا على ١٢٠ ألف قرية.وليتخيل المرء كم كان عدد سكان قرطبة وحدها فقط ، فما بالك بالأندلس

---

[1] يوسف أشباخ،تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ترجمة : محمد عبـــد الله عنـــان ،(ط٢ ؛ القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٩٦ م)، ص٢٥٢.

[2] زيغريد هونكه ،شمس العرب ، ص٤٩٧.

[3] روم لاند، الإسلام والعرب ، ص١٧٧ .

بأكملها[1] . ولهذا كان يطلق على قرطبة زينة أو فردوس الدنيا . وكانت تضاهي هي وغرناطة المدن العالمية المشهورة في ذلك الوقت مثل :بغداد ودمشق والقسطنطينية . بل كانت تتفوق عليهما في الكثير من الأشياء ، ككثرة القصور الفخمة ، والمكتبات العامة والحمامات الكثيرة ، والطرق المرصوفة ، والشوارع النظيفة مما جعلها قبلة للسكان يقصدونها بكثرة ، للاستيطان فيهما ، أو طلبا للعلم أو الرزق .

أما العلوم والفنون ، فمهما وصف الإنسان التطور الذي بلغته العلوم في الأندلس ، فلن يستطيع أن يعطيها حقها .فهي تعتبر في ذلك الوقت بمثابة جامعة عالمية[2] ، يقصدها الطلبة من جميع بقاع العالم .وخاصة أبناء الأشراف من النصارى .فبرز علماء كثر في جميع التخصصات العلمية نذكر على سبيل المثال لا الحصر:ابن حزم ، الباجي ، ابن طفيل ، ابن رشد ، ابن ميمون ... حيث قدموا للإنسانية – من خلال بحوثاهم وكتبهم القيمة – الشيء الكثير .ولكن هذا التقدم الهائل أصابه

---

[1] في حين كانت المدن الكبرى في أوروبا لا تتعدى عدد سكانها ٣٠ألف نسمة، تكسو شوارعها الظلمة والوسخ .

[2] طلب العلم في الأندلس لم يكن مقتصرا على العامة من الناس فقط، بل كان الحكام أيضا من العلماء وطلبة العلم ، فالحاكم الأموي الحاكم الثاني، مثلا يقول عنه آنخل جنثاليث بالنثيا أنه كان من : "... أعلم الناس بتاريخ الأدب وكانت إشاراته وتعليقاته حجة يرجع إليها علماء الأندلس".أنظر تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة : حسين مؤنس ، (ط١؛ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٢٨ م)، ص١٠ .وانظر أيضا لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الآبار ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، (ط١ ؛ القاهرة : الشركة العربية ، ١٩٦٣ م) (٢٠١/١)

الوهن والضعف ، بسبب الخلافات والصراعات السياسية التي بـــدأت تعـــصف بالأندلس منذ سقوط الخلافة الأموية فيها .

المطلب الخامس: سقوط الأندلس

لقد بنى العرب في الأندلس حضارة عظيمة ، امتدت قرون عديدة .ولكن ما إن زال الملك الأموي ، إلا وانقـــسمت الأنـــدلس إلى إمـــارات ومقاطعـــات كثيرة.تكثر بينهم الخلافات والحروب ، ويستعين بعضهم على بعض بالنصارى.

وفي هذه الفترة العصيبة بدأت التحرشات الإسبانية تكثر ، فاســـتطاعوا أن يستولوا على أول قاعدة إسلامية وهي طليطلة سنة ١٠٨٥م ، وكـــادت القـــلاع والحصون الأخرى تسقط في أيدي النصارى ، لولا أن الله نجا الأندلس بـــالمرابطين المغاربـــة إذ أوقعـــوا هزيمـــة كـــبيرة بـــالجيش الإســـباني في موقعـــة الزلاقة(ZALLACA)١٠٨٦م.واستطاعوا بذلك أن يوقفوا المد والزحف الإســـباني مدة قرن ونصف من الزمن . ثم زاد الموحدون قرنا آخر، بعد أن سحقوا الجـــيش الإسباني في معركة الأرك (ALARACOS)سنة ١١٩٥م .غير أن هذا النصر لم يدم طويلا للمسلمين ، إذ هزم الإسبان الجيش الإسلامي في معركـــة العقـــاب ســـنة ١٢١٢م، وتم القضاء عليه قضاءا تاما. مما زاد هذا من حماس النصارى فـــشجعهم على احتلال المدن الباقية .فسقطت جميع المدن الإسلامية بداية بـــ سرقسطة ســـنة ١١١٨م ، ولشبونة سنة ١١٤٧م ، وقرطبة سنة ١٢٦٣م ، وبلنسية سنة ١٢٣٨ م ، ومرسية سنة ١٢٨٠م ، وشاطبة سنة١٢٤٦م...إلخ.

وباختصار فلم يحل القرن الثالث عشر ميلادي ، إلا وكانت جميـــع المـــدن الأندلسية الكبرى في أيدي النصارى. ولم يبق للمسلمين إلا المدن الجنوبية كغرناطة التي صمدت أكثر من قرنين من الزمن ، ولكن هذا الصمود ضعف بسبب نشوب

الخلافات بين حكامها ، وكانت آخر هذه الخلافات بين أبي عبد الله الصغير وعمه عبد الله الزغل .واستطاع عبد الله أن يقضي على عمه بمساعدة الملك فرديناندو(Ferdinando) .وكان هذا الحاكم ضعيف الشخصية ميالا للنساء. فرأى فرديناندو(Ferdinando) أن الفرصة مواتية لتحقيق الحلم الذي يراوده ألا وهو توحيد إسبانيا . فأرسل أولا رسالة إلى عبد الله الصغير ، يطلب منه أن يسلم له غرناطة . فرفض عبد الله ذلك رفضا قاطعا . فما كان من فرديناندو(Ferdinando) ، إلا أن جهز جيشا يقدر ب٥٠ألف مقاتل وقيل ٨٠ألف من الفرسان والمشاة .واتجه إلى غرناطة وحاصرها عدة أشهر ،كاد هذا الحصار أن يهلك سكان غرناطة. فلما رأى الملك عبد الله الصغير خطورة الأمر ، جمع وزراءه وحاشيته ، وعرض عليهم فكرة تسليم غرناطة . فقبلوا هذا بعد أن أعطى لهم الملك فرديناندو(Ferdinando) العهد ألا يمس المسلمين بسوء أو يتعرض لدينهم أو مقدساتهم بشئ ، وقد أقسم على ذلك ، وعاهد الملك على احترام وتطبيق المعاهدة التي جرت بينهم [1].

أما رد فعل الشعب فقد كان الرفض ، إذ لم تستطع عقولهم ولا نفوسهم قبول هذا الاستسلام .ولكن لم يكن لهم من الأمر شيء سوى الإذعان لأوامر الملك . فكثر الحزن والبكاء بينهم ، وخاصة عندما رأوا أبواب غرناطة تفتح لجيش فرديناندو(Ferdinando).

---

[1] -أنظر نص المعاهدة في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقرئ تلمساني ، تحقيق : ذ/إحسان عباس ، (دط) بيروت ار صادر ،١٣٨٨هـ -١٩٦٨م) (٥٢٧/٦)

وقد غادر الملك عبد الله الصغير غرناطة مع بعض عائلته وحاشيته ، بعد دخول فرديناندو(Ferdinando) غرناطة . وهو يبكي كالأطفال فقالت له أمه :"أجل فالتبك كالنساء ، ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال"[1].

وبهذه الخاتمة المأساوية أسدل الستار على الحضارة الإسلامية في الأندلس ، لتحل محلها الحضارة المسيحية بزعامة فرديناندو(Ferdinando) وزوجته إيزابال(Isabell) ، واللذان عاهداالعرب على إحترامهم وحسن معاملتهم .ولكن هل حقيقة سيفيان بذلك؟سنرى عكس ذلك تماما وهوما تنبأ له موسى بن أبي الغسان أحد مستشاري الملك أبي عبد الله الصغير الذي نصحه بعدم تسليم المدينة ثم لما رأى توقيع الملك وحاشيته على وثيقة التسليم قال لهم :"لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم . ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم .إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مددنا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش والسياط والأغلال وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق . وهذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الموت الشريف، أما أنا والله لن أراه "[2].وقد صدقت نبوة موسى بن أبي الغسان ، فما إن دخل الجيش الإسباني غرناطة ، إلا وبدأت تظهر علامات الاضطهاد ، فقد حول مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ورفع على أبراج المدينة الصليب مكان الهلال ، وبدأت عملية تنصير المسلمين .

1

2 -عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (١٨٧/٥)

المبحث الثاني : رعاية محاكم التفتيش للاضطهاد الديني

المطلب الأول : نشأة محاكم التفتيش وتاريخها

مما لا شك فيه ،أن فكرة إنشاء محكمة التفتيش هي فكرة بابوية مسيحية . تحدوها في ذلك نزعة دينية متعصبة . ضد المخالفين من الهراطقة و الكفار . و الهدف من ذلك الحفاظ على سلامة و نقاوة العقيدة الكاثوليكية ، من الزيغ و الانحراف لأنهم في اعتقادهم أن لا سلام ولا حياة خارج المذهب الكاثوليكي .ولا يكون ذلك إلا بإنشاء محكمة تفتيشية ، مدعمة بقوة عسكرية . تتبع الأفكار المخالفة للمعتقد الكاثوليكي .

وقد كانت إيطاليا و فرنسا و ألمانيا من أول الدول التي ظهرت فيها محاكم التفتيش في بداية القرن الثالث عشر الميلادي[1] ؛ بسبب ظهور الأفكار الإصلاحية في أراضيهم . تدعوا في مجملها إما إلى رفض العقائد المسيحية كلية ، أو تدعوا إلى إصلاحها ، و إرجاع الكنيسة إلى ما كانت عليه في عهد عيسى عليه السلام . و كانت هذه الأفكار يقف ورائها كتاب و علماء أحرار يدعمونها بآرائهم و كتاباتهم الحماسية . متأثرين بأفكار الحضارة الإسلامية وعلمائها.

---

[1] يقول محمد رزوق : " يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش ، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنسية الرومانية ظهرت في وقت مبكر . فخلال المجلس الكنسي الثالث في لتران latran ١١٧٩ م أصدر البابا ألكسندر الثالث أمرا بمتابعة المارقين و حجز ممتلكاتهم و استرقاقهم " . أنظر الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ -١٧ ، (ط ؛ [illegible] : أفريقيا الشرق ، [illegible]) ، ص ٦ .

و قد لاقت أفكارهم ودعوا لهم قبولا و استحسانا عند عامة الشعب ، لأنهم سئموا من خرافات الكنيسة ، ومن ظلمهما الآمتنهي لهم .فاحتضنها و ساهم في نشرها و الدفاع عنها . فأرعب ذلك المؤسسة الدينية ، و رأت أن ذلك خطر محدق يحوم حولها ، و إن لم تقف في وجهها فستكون نهايتها الحتمية .

فبادر البابا راعي الكنيسة الأول إنشاء محاكم التفتيش لحماية العقيدة الكاثوليكية من البدع مبكرا ، قبل أن تنتشر عند عامة الشعب . و أوكل هذه المهمة الصعبة إلى آباء و قساوسة فرقة الدومينكان (Dominicains) و الفرنسيسكان (Francisccains) ، ثم اليسوعيين (Jésuites[1]) ؛ و هم يعتبرون من أنشط الفرق المسيحية في محاربة الهراطقة و الكفار ، حيث كان لهم دور لا يستهان به في قمع الأفكار الإصلاحية . و كانت تدور محاكم التفتيش في كنائس و أديرة هاته الفرق . ثم بعد ذلك أصبحت تحت إشراف الدولة مباشرة . فحققت من جراء ذلك أموالا ضخمة ، و أراض واسعة ، كانت الكنيسة لها النصيب الأوفر من ذلك . و أصبحت القوة الثانية التي يحسب لها ألف حساب .

و كما قلنا في بداية الأمر، أن هذه المحاكم جاءت لحماية العقيدة الكاثوليكية من الأفكار الإصلاحية . ثم بعد ذلك اتسعت صلاحياتها و مهماتها " فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر و الزيغ في العقيدة . بل تعدته إلى مطاردة السحر و السحرة و العرافين ، وشبه هؤلاء من الكفرة "[2] . وبهذا صارت محاكم التفتيش كمنظمة رهيبة لها سلطة شاملة تحرس أفكار الناس ؛ فذهب من

---

[1] -أنظر : pierre vilar :histoire de l'Espagne Paris .1958 .p 202

[2] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ج٥ ، ص ٣٢٩ .

جراء ذلك آلاف الضحايا و القتلى الأبرياء . كما فتحت السجون أبوابها للتعذيب ، يشرف عليها رجال دين جهال قساة .

حتى الكتب العلمية لم تسلم من يد هذه المحاكم ، فلم يرو ضمأها قتل العلماء الأحرار الأبرياء ، بل تعدتها إلى حرق الكتب و هذا بعد أن أصدر الفاتيكان قراراته بمنعها ، لأنها في حد زعمه تحتوي على الكفريات فأحرق التلمود ، و كتب الفلاسفة الكبار ككتب أرسطو و كتب ابن رشد ... و كتبا عديدة تمثل عصارة الفكر الإنساني .

" و ربما يقول قائل : إن الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، و لكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين إلى أصل الكتب المقدسة ، و يبيحون للعامة أن ينظروا فيها و يفهموها و قد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر و العقول " [1] .

و الجواب ، يكون بذكر ما ذكره علماء وكتاب البروتستانتية عن إقدام أحد أعظم رجالها و هو كالفن(calven) على إحراق سيرفت (Servet) بجنيف (genive) بسبب أنه كان يقول إن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها . كما أن لوثر (Lether) لم يكن أحسن حالا منه ، فقد كان من " أشد الناس إنكارا على من ينظر في فلسفة أرسطو " [2] . و كان يلقبه بالخنزير الدنس الكذاب .

---

[1] محمد عبده ، الإسلام و النصرانية مع العلم و المدنية ، ((دط) ؛ الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، (دت)) ، ص ٣٥ .

[2] محمد عبده ، المصدر السابق ،ص ٣٨ أنظر أيضا محمد الغزالي ،التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ((دط) ؛ مصر : دار الكتاب العربي ، (دت))، ص ٢٦٤.

و هكذا يتبين لنا أن المذهب الإصلاحي لم يكن واسع الصدر- كأخيه الكاثوليكي - مع المخالفين ، فهم كما قال رحمة الله الهندي كأسلافهم :"إذا تسلطوا تسلطا تاما اجتهدوا في إمحاء المخالفين "[1].

و بالأخص بعد أن أصبحت زمام السلطة في أيديهم. فاضطهدوا كل فكرة تخالف فكرتهم ، وكل رأي يعارض رأيهم . وفي مقدمتهم إخوانهم في العقيدة الكاثوليكيين .

وقد تم إنشاء محاكم التفتيش في إسبانيا أول مرة في مملكة أراغون (Aragon) سنة ١٢٤٢ م وأطلق على هذا الديوان بالديوان القديم . و عكف على مطاردة طوائف الألبيين وإخماد دعوتهم في أراغون (Aragon) ، كما كانت من مهماته الرئيسية متابعة اليهود المتنصرين ، والذين كان آباء الكنيسة يشكون في مسيحيتهم ويعتبرونهم "شرا من اليهود الخلص"[2].

أما في قشتالة ، فقد تأخر إنشاء محكمة التفتيش نوعا ما ، وهذا راجع إلى رفض إيزابال (Izabell) وفرديناندو (Ferdinando) ذلك .ولكن ما إن جاء الكاردينال توركوميادا إلى القصر الملكي حتّى أقنع الملكة بإنشاء محكمة التفتيش في مملكتها حماية للديانة الكاثوليكية . وقيل أن سبب قبولها ذلك أنها عاهدته أنها إذا تولت العرش فإنها" تكرس حياتها لسحق الكفر ، وحماية الكثلكة"[3] وبهذا أنشأ أول ديوان لمحكمة التفتيش في أشبيلية سنة ١٤٨٠م "وبدأ الديوان أعماله في أشبيلية

---

[1] إظهار الحق ،ص ٤٨٧. وانظر أيضا : ول وايرل ديورانت ، قصة الحضارة (٢٦/٢٧) وهويتحدث عن اضطهاد الملكة إليزابت للمذهب الكاثوليكي في إنجلترا في القرن السادس عشر .

[2] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (٣٣٠/٥)

[3] عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص٣٣١ .

بإصدار قرارات يحث فيها كل شخص ، أن يساعد الديوان في البحث مع الملحدين والكفرة . وكل من في عقيدتهم زيغ ، وفي جمع الأدلة على إدانتهم وفي التبليغ عنهم بأية وسيلة "[1].

وقد أجبرت الكنيسة الشعب الإسباني على مساعدة محاكم التفتيش ، إذ أقنعتهم أن ذلك من كمال الإيمان . فأصبح هذا الشعب المسكين يراقب بدافع الإيمان أو الخوف ، الهراطقة والكفار .

وكان اليهود هم الضحية الأولى لهذه المحاكم ، ولم يجدوا ملجأ آمنا سوى عند السادة والإقطاعيين في الريف .

أما المدن الإسبانية الأخرى ، فقد رفضت هذه المحاكم " فعندما أمر فرديناندو(Ferdinando) رعاياه في أراغون وبلنسية وقطالونيا ، باستقبال رجال محاكم التفتيش ومساعدتهم في إقامة المحكمة رفضوا ذلك سواء أكانوا من رجال الدين أو من غيرهم من الرجال العاديين ، واحتجت قطالونيابوجه خاص وتشاحنت مع فرديناندو ثلاثة أعوام كاملة قبل أن تسمح له بتأسيس محكمة التفتيش في مدينة برشلونة "[2].

ثم بعد ذلك عمت محاكم التفتيش كافة إسبانيا في جميع المدن والأرياف ، وأصبح يشرف عليها قضاة "يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوي "[3].ثم عين الكاردينال كيميناس (Ximinax) محققا عاما وخول له وضع دستور جديد لديوان التحقيق وكان أعظم

---

1 عبد الله عنا ن ، المصدر السابق ص٣٣١

2 دورو ثي لورد ، إسبانيا شعبها وأرضها ، ص١١٨ .

3 ول وايرل ديورانت ، قصة الحضارة .(٧٩/٢٣)

عمل قام به هذا الكاردينال هو وضع لوائح وتنقيحات للديوان المقدس " وكـــان هذا التنظيم عظيم الأثر في تطور ديوان التحقيق الإسباني ، ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء في إسبانيا ويرتجف لذكرها الفرد العادي ، وأضحى نشاطها الرهيب وقضاؤها المدمر عنصرا بارزا في التاريخ الإسباني "[1].

أما في البرتغال فقد كان إنشاء أول محكمة للتفتيش سنة ١٥٣٦م وصـــار ذلك المجتمع البرتغالي من ذلك الوقت "يعاقب بكل صرامة ليس فقط من إرتد عن الكاثوليكية أو تتبع هرطقة معينة بل كذلك من تبين أي مظهر مهما كان بـــسيطا من مظاهر هوية ثقافية أخرى"[2].

فهذا تاريخ موجز عن محاكم التفتيش في أوربا [3].ويتضح لنا أن الـــدافع الديني هو الذي كان من وراء إنشائها و تأسيسها . و التي سوف تضرب أروع الأمثلة في الوحشية و الهمجية ، و التي بفضل نشاطها الكبير المتواصل ، تم القضاء على الإسلام في إسبانيا و في بعض المناطق الأوربية الأخرى . و لم تنته إلا في بداية القرن التاسع عشر الميلادي .

---

[1] ول وايرل ديورانت ، المصدر السابق (٣٣٣/٢٣) ولمزيد الإطلاع عن تاريخ نشأة محاكم التفتيش في إسبانيا أنظر : pierre vilar .histoire de l'Espagne .p202-203-203.

[2] أحمد بوشرب ، مغاربة البرتغال ، ص١٣٠، وانظر أيضا - alan bourdon : histoire du albert Portugal ,p43.

[3] لمزيد من التفصيل عن نشأة وأعمال محاكم التفتيش :أنظر : henry charles lea moriscos of spain their conversion and explusion newyork ,v1,1901,p of 116- to 133. ,

المطلب الثاني : إجراءات محاكم التفتيش

تمهيد :

بعد أن أوجدت محاكم التفتيش في إسبانيا ، تولت السلطة الروحية شؤونها الخاصة لحماية الديانة الكاثوليكية من البدع و الكفر . و قد كانت هذه المحاكم تسير بقوانين و إجراءات كثيرة ، و هي تبدأ بالتبليغ و تنتهي بالعقوبة . و باتفاق العلماء و الكتاب أن هذه المحاكم هزلية ، بسبب أنها لم تكن مؤسسة على العدل بل على أهواء و رغبات رجال الدين ، و الذين كان التعصب و الجهل من أهم سماتهم في ذلك العصر . و لهذا نرى " بأنها بأصولها و تفاصيلها ، أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق و العدالة . و أشد ما يكون عسفا و قسوة و همجية " [1] .

الفرع الأول : التبليغ

إن أول خطوة من خطوات الإدانة أمام دواوين محاكم التفتيش هي التبليغ بالمتهم . فبمجرد وصول شائعة أو حتى شبهة إلى هذه المحاكم فلا يشترط أن تكون صحيحة أو خاطئة . يسجل المتهم في دائرة الاتهام . مما يعرضه بعد ذلك إلى متابعات محاكم التفتيش . و غالبا ما تكون هذه التهم مكيدة من محاكم التفتيش ، أو بواسطة اعتراف الموريسكي أمام القس . و هو ما يعرف بالاعتراف الغفراني ، و يعتبر من أقوى الأدلة على المتهم .

---

[1] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (٣٣٥/٥)

أو بوشاية من أحد أفراد الشعب ، و الذين كانت تسيطر عليهم حياة روحية بدرجة كبيرة . إذ كانوا يعتقدون أن من مهامهم الرئيسية الدفاع عن الدين المسيحي ، وأن أضعف الإيمان هو مراقبة المورسكيين في جميع حركاتهم و أقوالهم . و كانت الكنيسة تشجعهم على ذلك عن طريق المنابر الكنسية و المناشير الدينية . إذ تطلب على كل " من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش " [1] . يقول عبد الجليل التميمي : " لقد تفنن المواطنون الإسبانيون في مراقبة المورسكيين و الوشاية بهم إيمانا منهم أن مثل هذه التصرفات من شأنها أن تقوض المفهوم الصارم الذي فرضته الكنيسة ، و الدولة . لاحترام وحدة الدين المسيحي و مثاليته . و الذي يشكل فلسفة الوجود للفرد الإسباني في القرن السادس عشر " [2]

و كان الشعب الإسباني المخدوع ، يستعمل جميع الوسائل و الحيل للإيقاع بالمورسكيين في الفخ . كالغضب مثلا " إذ كان المسيحيون يطبقون المثل القديم الذي ينصح بإثارة الصديق و دفعه على الغضب قصد إدراك أفضل لأفكاره الحقيقية " [3] . مثلما حدث للمرأة المورسكية إيزابال (izabelle) و الذي سبها أحد الإسبان بقوله : أنت كلبة عربية ، فردت عليه غاضبة " نعم أنا عربية ، ذلك أن أبي و أمي كانا و ماتا عربيين ، و أنا أيضا عربية و سأموت عربية " [4] .

---

[1] لوي كارديك ، المورسكيون الأندلسيون و مسيحيون ، ص ٢٣ .

[2] الدولة العثمانية و قضية المورسكيين الأندلسيين ،((دط) ؛ زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية و المورسكية ، ١٩٨٩ م) ، ص ٧٠ .

[3] لوي كارديك ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

[4] لوي كارديك ، المورسكيون الأندلسيون و المسيحيون ، ص ٢٣ .

أو كحال أحد المورسكيين الذي غضب عندما سمع مسيحي يسب الرسول عليه الصلاة و السلام ، فرض عليه قائلا : " إن محمدا يعد رجلا خيرا و طيبا " [1] . كما كانت ثرثرة النساء و سذاجة الأطفال ، سببا آخر لتوجيه التهمة من طرف محاكم التفتيش . و من ذلك أن طفلا وجد امرأة مسيحية راكعة أمام الصليب ، فقال مستفهما : " ماذا تفعل هذه المرأة المسكينة ، إذ اعتقدت أن ذلك سوف يجلب لها شيئا ما " [2] .

كما كانت التصريحات لبعض المورسكيين سببا لإلقاء القبض عليهم . كحال أندرس لوباز(Andres lopez) [3] الذي ألقي عليه القبض و سيق إلى السجن بسبب أنه سرد حكاياتها أيام سقوط غرناطة و حرب البشرات و تمنى أن يموت و هو مسترجع هويته العربية الضائعة منه .

فهذه الحالات السابقة ، تعتبر في نظر محاكم التفتيش علامة على الكفر . فيأمر القاضي بإلقاء القبض على المتهم ، ريثما يتم إحالته على المحكمة التي تفصل في قضيته .

---

[1] نفس المكان

[2] لوي كارديك ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

[3]

الفرع الثاني : التحقيق

بعد التبليغ تأتي الخطوة الثانية و هي التحقيق . و يقوم به ديوان التحقيق بسرية تامة . ثم بعد أن ينهي البحث تعرض " نتيجة التحقيق على الأحبار المقررين ليقرروا ما إذا كانت الوقائع و الأقوال المنسوبة إلى المبلغ هذه تجعله مرتكبا لجريمة الكفر . أو تلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . و قرارهم يحدد الطريقة التي تتبع في سير القضية . و يقيم المقررون تبيين الكتمان أيضا . و كان معظم أولئك المقررين من القسيسين الجهلاء المتعصبين . و من ثم فقد كانت أخلاقهم و آرائهم بل ذمتهم و شرفهم مثارا للريب . و كان رأيهم الإدانة دائما إلافي أحوال نادرة " [1] . و هكذا نرى بوضوح أن عملية التحقيق تفتقر لشرط النزاهة و العدل .

ثم بعد هذه التحقيقات و الإدانات ، تعرض القضية مرة أخرى على قضاة محكمة التفتيش ، الذين يقومون بفحص " القرائن التي جمعها المبلغون و المحققون ، حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فإنها تصدر أمرا بالقبض علية " [2] . فيرمى به في السجن لمدة معينة ، و قد تدوم هذه المدة زمنا طويلا . مما يسبب لهذا الشخص أمراضا جسمية و نفسانية كبيرة . ثم تعقد المحكمة جلساتها ،و يطلق على هذه الجلسات بجلسات الإدانة .

---

[1] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ،ج٥ ، ص ٣٣٤ .

[2] ول وايرل ديورانت ، قصة الحضارة (٨٠/٢٣) و أنظر أيضا : عادل سعيد بشتاوي ، الأمة الأندلسية الشهيدة ، (ط١ ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ٢٠٠٠ م) ، ص ٢١٩ .

الفرع الثالث : الإدانة

بعد القبض على المتهم يودع في السجن في انتظار عقد المحكمة جلساتها . فتعقد ثلاث جلسات يطلق عليها جلسات الرأي أو الإنذار و فيها يطلب من المتهم أن يقرر في بداية الأمر الاعتراف مستعملين معه اللين و الرأفة . فإن اعترف المتهم تسلط عليه عقوبة خفيفة ، و إذا لم يعترف يحال إلى التعذيب لنزع الحقيقة من فمه ، يقول عبد الله عنان موضحا طريقة هذه الطريقة " ... يقرر الحقيقة ويوعد بالرأفة إذا قرر وفق ما ينسب إليه . و ينذر بالشدة و النكال إذا كذب أو أنكر . لأن الديوان المقدس لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته . و هي طريقة غادرة محيرة . فإذا اعترف المتهم بما ينسب إليه و لو كان بريئا اختصرت الإجراءات و قضي عليه بعقوبة أدنى . و لكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق . فإنه لا ينجو من عقوبة الموت مهما كانت الوعود التي بذلت له بالرأفة و العفو " [1] .

و هكذا نلاحظ ،أن هذه المحاكم لا تتقيد في محاكمتها بالجانب الأخلاقي . فجميع الوسائل كالكذب والغدر و خيانة العهد مباحة مع المتهم ، فالمهم هو إيقاع التهمة على السجين .و الشيء الخطير أنه " أثناء المحاكمة يفقد المتهم كل الحقوق ، فشهوده لا يقبلون ، في حين يقبل كل شاهد هذه ، لا يسمح له بالاتصال بأسرته ، يحاسب على كل حركاته ، فكل الحركات التي لا تمت بصلة إلى تقاليد و عادات المجموعة المسيحية قد تفسر كعلامة على إتباع الدين الإسلامي " [2] .

---

[1] دولة الإسلام في الأندلس (٣٣٤/٥)

[2] جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص ٧٧ .

و إذا أصر المتهم على الرفض فإنه يحـــال إلى التعـــذيب في غياهـــب السجون .

الفرع الرابع : التعذيب

يعتبر هذا الفصل من أبشع فصول محاكم التفتيش ؛ إذ يـــستعمل كوســـيلة تأديبية للمعاندين . فبعد أن يساق المتهم إلى غياهب السجون ، والـــتي تفتقـــد إلى أبسط مقومات الحياة الإنسانية ؛وغالبا ما تكون هذه السجون تحت الأرض .

فقد نقل إلينا العلماء طريقة التعذيب التي كانت تسلط على المورسكيين . و كانت في معظمها معروفة في العصور الوسطى . ومن طرق التعذيب الوحشية ، التعذيب بالماء و هو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلم و ربط ســـاقيه و ذراعيه إليها مع خفض رأسه إلى أسفل . ثم توضع في فمه زلعة جرعات كـــبيرة و هو يكاد يختنق و قد يفصل من هولها الجلد . ولا ينقطع التعذيب على المتـــهم إلا بعد أخذ الاعتراف و لو طال ذلك زمنا طويلا . علما أن قضاة محاكم التفتيش هم الذين يحددون أساليب التعذيب و نوعيته [1].

و كان لا يحضر ساعة التعذيب إلا الأحبار و الجلادون و الطبيـــب إن اقتـــضى الأمر.

و هذه الحقائق التاريخية لم يسجلها علماء المسلمين فقط ، بل نقلها الكـــثير مـــن مؤرخي الغرب و مفكريهم ، و كلهم أجمعوا على وحشيتها و بربريتها .

ثم بعد تسليط العذاب على المتهم ، ينقل إلى مرحلة أخرى تعتبر المرحلة مـــا قبل الأخيرة و هي مرحلة المرافعة .

---

[1] سوف نتكلم كثيرا عن وسائل وطرق التعذيب في فرع أساليب محاكم التفتيش .

الفرع الخامس: المرافعة

في هذه المرحلة توجه أسئلة مباشرة إلى المتهم ، أملا في نيل الاعتراف منه . و كان يسمح له باتخاذ محام يدافع عنه . و المحكمة في الغالب هي التي تختار له ذلك . بعد أن يقسم يمين الولاء أنه سوف يؤدي عمله بإتقان و أنه إذا اكتشف أن الشخص الذي يدافع عنه مهرطق أو كافر ، أنه سيبلغ محاكم التفتيش عنه . يقول المؤرخ عبد الله عنان عن ذلك : " ... على أن الدفاع لم يكن في الغالب سوى ضرب من السخرية ، و لم يكن عملا مأمون العاقبة و لم يكن يسمح للمحامي أن يطلع على أوراق القضية الأصلية أو يتصل بالمتهم على انفراد "[1].

و هكذا نرى أن هذه المحاكم كانت تفتقر إلى المصداقية و العدالة ، و أن الإجراءات التي تتخذها ما هي إلا إجراءات شكلية فقط لتمويه السذج من الناس فكيف ننتظر أن تكون قراراتها صادقة وهي بداية من الخطوة الأولى مشكوك في نزاهتها .

و بعد رفع الجلسة ، يأتي الدور الأخير من هذه المسرحية ليفصل في قضية المتهم إما بالبراءة و هذا قليل ، أو بالإدانة و هو الغالب .

الفرع السادس: الحكم

بعد انتهاء المرافعة ترفع الجلسة في انتظار إصدار الحكم النهائي ، فإذا أصدر الحكم ببراءة المتهم فإنه تعطى له شهادة تثبت براءته و طهارته من الذنوب التي نسبت إليه ، و لا يعوض له بشيء ، حتى و لو صودرت جميع ممتلكاته أثناء

[1] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (٣٣٦/٥)

سجنه . " و أما إذا قضى بالإدانة ، فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ و هو إجراء من أبشع الإجراءات الجنائية التي عرفت " [1] . فيؤخذ إلى الساحة العمومية بعد أن يلبس الثوب المقدس و يوضع في عنقه حبل و في يده شمعة ن ثم يذهب به إلى الكنيسة ليجوز على رسوم التوبة ، و يسمع الحكم الذي حكم القضاة ضده .فإذا كانت التهمة خطيرة فإنه يحكم عليه بالإعدام و غالبا ما تكون حرقا في الساحات العمومية يحضرها الكبراء و النبلاء و عامة طبقة الشعب ، و الذين كانوا مولعين بمشاهدتها .

أو يصدر في حقه السجن مع الأعمال الشاقة ، مع مصادرة أمواله و التي تعود إلى السلطة الملكية و الروحية .

حتى الأموات لم يسلموا من ظلم محاكم التفتيش ، إذ كان ديوان التحقيق " يجيز محاكمة الموتى و الغائبين ، و تصدر الأحكام في حقهم و توقع العقوبات عليهم كالأحياء . فتصادر أموالهم و تعمل لهم تماثيل يعقد فيها عقوبة الحرق أو تنبش قبورهم و تستخرج رفاتهم لتحرق في موكب الأوتودافي " [2] . Auuto-do-fé) و قرارات محكمة التفتيش غير قابلة للطعن أو المناقشة ، و لا يستطيع احد مهما كان مركزه الاجتماعي الاعتراض على قراراتها الإرهابية .

[1] عبد الله عنان ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

[2] نفس المكان .

المطلب الثالث : أساليب محاكم التفتيش

الفرع الأول : التعذيب والقتل

يعتبر أسلوب القتل و التعذيب من أكثر الأساليب الجهنمية التي طبقتها محاكم التفتيش ، و هذا بعدما اقتنعت أن أسلوب الترغيب لم يجد نفعا مع المورسكيين . فأعطت السلطات الإسبانية الضوء الأخضر للكنيسة .

و العلماء و كتاب التاريخ مازالوا يتعجبون من وحشية الوسائل التي استعملتها محاكم التفتيش ،-إذا أن العالم لم يعرف محكمة إرهابية كمحكمة التفتيش -.و يزيد تعجبهم و دهشتهم في أن الذي يشرف على محاكم التفتيش هم رجال الدين . و الذي كان يفترض أن يكونوا هم من أرحم و أرأف الناس . و لكن الذي حدث عكس ذلك تماما .

و المصادر والمخطوطات التي وصلتنا عن محاكم التفتيش قليلة و نادرة جدا . و غالبيتها إن لم نقل كلها مصادر غربية . و السبب في قلتها يرجع بالدرجة الأولى إلى أن معظم أماكن التعذيب تمت في الأديرة و الكنائس ؛مما أدى إلى طمس الكثير من الحقائق التاريخية . و لكن المعلومات التي وصلتنا عن هذه المحاكم تكفي لإصدار الحكم عليها .

فأما الأساليب التي انتهجتها محاكم التفتيش في تعذيب المورسكيين ، فهي راجعة أولا إلى نوع الهرطقة التي اتهم بها. و خلاصة طريقة التعذيب أنه يبدأ بمنع الطعام و الشراب عن المتهم ، حتى يصبح نحيلا غير قادر على الحركة كخطوة أولى . ثم تأتي بعد ذلك عملية قلع الأظافر و نزع الجلد و وضع الملح على الجروح

. أو بوضع المتهم في ماء ساخن أو بارد . أو يوضع في أماكن ضيقة تحت الأرض بحيث لا يصل ضوء الشمس إليه . مما يزيد في رطوبة المكان ، فيؤدي إلى تعرض المتهم إلى الأمراض المزمنة .

و القصة التي ينقلها لنا الكثير من المؤرخين و الكتاب ، توضح لنا باختصار الطريقة المتبعة في التعذيب ، و خلاصتها أنه بعد أن أصدر نابليون (NAPOLION) مرسوما ١٨٠٨ م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا ظل رهبان " الجزويت " أصحاب المحاكم الملغاة في الاستمرار "في القتل و التعذيب ، ففشل ذلك الجنود الفرنسيين ، فأرسل المريشال 'سولت " الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل ليمونكي مع ألف جندي وأربعة مدافع وهاجم دير الديوان ، و بعد إحتلال الدير و تفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء . فقرر الكولونيل " ليمونكي" فحص الأرض " [1] . فأمر برفع الأبسطة ، ثم أمر بصب الماء على الأرض ، فإذ بالماء يتسرب إلى الأسفل . فأكتشف أن تحت هذا الدير مخبأ التعذيب ، ثم نزل إلى المخبأ ، فأول ما رأى مقعد يجلس عليه رئيس محكمة التفتيش و بجانبه مقاعد جانبية تمثل مقاعد القضاة . ثم توجه إلى الأمام فوجد قاعة التعذيب ، فرأى أشياء عجيبة في تعذيب المتهمين ، مثل : غرف صغيرة بحجم الإنسان بعضها عمودي ، و بعضها أفقي يبقى الإنسان واقفا عليها حتى يقضى عليه و يبقى سجين الغرف الأفقية مطروحا حتى تسقط منه العظام . كما وجد آلات لتكسير العظام و سحق الجسم و " صندوق في حجم رأس الإنسان تماما يوضع فيه الرأس المعذب بعد أن يربط بالسلاسل من يديه و رجليه فلا يقوى على الحركة . و تقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة

[1] أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص ٢٥٦ .

. و قد جن الكثير من ذلك اللون من التعذيب ... و يبقى المعذب على حاله حتى يموت " [1] . ثم رأى شيئا عجيبا وهو عبارة "عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ! و قد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة و كانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه و خناجره ، فإذا أغلق تمزق جسم الشاب و تقطع إربا " [2]

كما عثروا على " جملة آلات لمسك اللسان و تمزيق أثداد النساء و سحبها من الصدور بواسطة كلاليب فضيعة و مجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين و هم عراة حتى يتناثر اللحم من العظام " [3] .

كما أنهم وجدوا في سجلات هذه المحاكم ألوف من الذين قضى عليهم الرهبان بالموت و غالبيتهم كانوا من الأغنياء لتسهيل عملية نهب أموالهم و الاستيلاء على أراضيهم .

كما كانوا يلقون بالمورسكيين إلى الحيوانات الضارية ، بعد أن يمنع عنهم الطعام لمدة طويلة . أو كانوا يرمونهم – أي المورسكيين – من الأماكن العالية و قد ذكر عبد الرحمن علي الحجي " أن الأستاذ الفاضل الصديق عبد العزيز بن محمد بن تاوين التطواني ، نقلا عن الأستاذ كاستيخون ، أن في قرطبة برجا مازال

---

1 نفس المكان .

2 نفس المكان .

3 المرجع نفسه ، ص ٢٥٦ .

قائما ، كان يلقى منه بعض من حكمت عليهم محاكم التفتيش من المسلمين . و قد رأى ذلك البرج في قرطبة حين زيارته له "[1].

أو كانوا يدفنونهم في مقابر جماعية وهم أحياء بدون تمييز بين الصغير والكبير أو بين المرأة والرجل . وقد اكتشفت هذه المقابر في القرن العشرين "ففي بداية سنة ١٩٧٩ م ، كشف عن مقبرة جماعية في جنوب إسبانيا على حدود البرتغال في كنيسة مدينة ليرينا"[2].

ثم بعد أن أصبحت السجون لا تتسع للأعداد الغفيرة من المورسكيين ، كانت الكنيسة

تحكم بقتلهم حرقا . يقول الأستاذ حتاملة محمد عبده "... فعلى سبيل المثال في طليطلة تم الحكم بالإعدام على ١٢٠٠ شخص في جلسة واحدة "[3]. كما حكم أيضا في مدينة آيلة خلال ثلاث سنوات ما بين ١٤٩٩ – ١٥٠٩ م على ١١٣ شخص بالموت حرقا .

والسلطة الإسبانية وبعض رجال الدين المنصفين لا ينكرون هذه الجرائم التي وقعت ضد المورسكيين ،كما لا ينكرون النهب الذي تعرضوا له من طرف الكنيسة ورجالها .

---

[1] محاكم التفتيش وأساليبها، ((دط)؛ الجزائر: شركة الشهاب ،(دت)) ، ص٦٦ .و أنظر أيضا شوقي أبو خليل ، مصرع غرناطة ، (ط٢، دار الفكر : بيروت ١٩٨١م)،ص ١١٠، ١١١ ،١١٢.

[2] عبد الرحمن علي الحجي، المرجع نفسه ، ص ٦٦

[3] نقلا عن جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص٨١.

الفرع الثاني : الإكراه والمصادرة

اعتبرت محاكم التفتيش إكراه الموركيين ومصادرة أملاكهم ، من وسائل الضغط الفعالة في إجبارهم على التنصر .فهي لا تقل أهمية عن القتل والتعذيب . وقد أوكلت هذه المهمة إلى السلطة الروحية . والتي اشتهرت كأماكن لنهب أموال وممتلكات الموركيين باسم الدفاع عن الدين .وكما يقول المؤرخ شكيب أرسلان صار "ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسألة "[1].

فاستولت على مئات الآلاف من الهكتارات الصالحة للزراعة ، فخلال ثورة البشرات سنة ١٥٦٨ م استولت على مئة ألف هكتار من الأرض كانت ملكا للموركيين يسترزقون منها . وما بين سنة ١٥٥٠ و ١٥٧٠ م استولت محاكم التفتيش في غرناطة وحدها على أملاك ١٤٠٠ موركي تقدر ب ٤٢٨٠٠٠٠ هكتار ، ما عدا الغرامات التي فرضت عليهم .

وبهذا فقد الموركيون أراضيهم وممتلكاتهم ، وأصبحوا أجراء وعمال عند الأشراف والنبلاء . و كانت تلك الأراضي الواسعة بعد أن يتم الاستيلاء عليها تهدى إلى محاكم التفتيش و توزع الباقي على عامة الشعب الاسباني . الذين كانوا يترقبون فرصة هجرة الموركيين من أراضيهم للاستيلاء عليها.

وليت هذا الأمر توقف عند هذا الحد ، فالنصوص تؤكد " وتشير إلى أن مصادرة أموال الناس كان إجراءا عاديا ، كما توحي بذلك الضرائب التي كانت

---

[1] لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ،(١٥/٢)

تفرض على مورسكي بلنسية "[1] مقابل السماح لهم بممارسة الشعائر الإسلامية . مثل : القوانين التي أصدرها شارلكان . ثم تراجع عنها بسبب أن المورسكيين دفعوا له المال . أو كما حدث أيام الملك فيليب الثاني (philip2) عندما دفع له المورسكيين مبالغ مالية كثيرة تقدر بـ " ٨٠٠٠٠٠ دينار ليخفف عنهم العذاب "[2] مع دفع الضرائب دائما على كل فرد مسلم يمارس أي شعيرة . و لم ينج من هذه الضرائب حتى المسيحيون الجدد. بل كانت في غالبيتها أكبر من الضرائب التي يدفعها المورسكيين . إن يقول عبد الجليل التميمي . " أن ٧٢ % من المورسكيين التائبين قد سددوا غرامات كان عددها العام . ثلاث مرات أعلى من العقوبات المسلطة على التائبين "[3] . ثم يقول " إنه يظهر بشكل واضح أن محاكم التفتيش قد أيثرت من عقوبات التوبة بل على شكل نقد ضعفي الأموال المسددة من طرف المورسكيين المتهمين بالبدع و . الهرطقة "[4] . و هكذا نلاحظ أن محاكم التفتيش لم ينج منها أحد مما يدل على أن الهدف من وجودها هو نهب أموال الشعب لا غير . و لهذا كانت جميع أملاك محاكم التفتيش من الأراضي و الأموال و المنازل التي كانت ملك المورسكيين فاستولوا عليها .

كما كانت تفرض عليهم أحيانا دفع مبالغ مالية إضافية لبناء القصور أو السجون أو بعض المرافق العمومية . ففي ١٦٠٨ رمم أحد السجون . بأموال مورسكية . أو كحال أهل غرناطة عندما " أجبروا على دفع ٨٠٠٠٠ دوكاسة ١٥٢٦

---

[1] أنطونيودومينقير هورتز و برنارد بنثنت تاريخ مسلمي الاندلس ، الموركيون " حياة ... ومأساة أقلية "، ترجمة : عبد العال صالح طه ، (ط١ ؛ قطر : دار الاشراف ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨ م) ص١٢٩

[2] - ل.أ. أستوديو . تاريخ العرب العام ، ص ٣٧٨ .

[3] - تطبيق المورسكيين الأندلسيون الشعائر الإسلامية .ص ٢٦.

[4] المرجع نفسه، ص ١٢٦.

لبناء القصر الملكي . بداخل قصر الحمراء في مدخله "[1] . و أحصى بعض المؤرخين الأموال التي نهبتها محاكم التفتيش في غرناطة وحدها بين ١٥١٨ و ١٥٠٨ م فوصل المبلغ إلى ٦٢١٠٠٠٠٠٠ مراودي بقسية مبلغ ٥٩٧٦٠٠٠٠٠٠ مراودي و هي مبالغ خيالية في ذلك الوقت "[2] . و الذي ساعدهم على تسديد هذه المبالغ هي الصحة الجيدة التي كانوا يتمتعون بها من الناحية الاقتصادية و الاجتماعية .

و قد ساهم الأغنياء في حماية الفقراء المورسكيين الذين أدينوا بالهرطقة و الكفر. فكانوا يدفعون لمحاكم التفتيش أموالا مقابل تجنيبهم السجن أو القتل ؛ و بفضل هذه الأموال كانت محاكم التفتيش تستمر و تقوى . و لكن ما إن طرد المورسكيين من إسبانيا حتى وقعت محاكم التفتيش في ضائقة مالية كبيرة . يقول لويس كاركيال (louis cardialle) " و قد تبين لنا بسهولة كيف أن دواوين محاكم التفتيش كانت تعش في جزء كبير من نفقاتها من مورسكيين "[3] بل حتى الجهاز الإداري كان من أكبر المستفيدين من أموال المورسكيين بدليل " أن البلاط الملكي قد تردد كثيرا في طرد المورسكيين "[4] .

المطلب الثالث : شهادات علماء الغرب على وحشية محاكم التفتيش

هناك اتفاق بين المؤرخين على أن إنشاء محاكم التفتيش كان من أعظم

---

[1] -المرجع نفسه ، ص ٤٥.

[2] - المرجع نفسه ، ص ٤٥.

[3] - المورسكيون الأندلسيون و المسيحيون ، ص ١١١.

[4] - لويس كارديك : المصدر السابق ، ص ١١١.

الأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة الكاثوليكية. فقد سودت التاريخ الأوروبي وجعلته يبدو تاريخا أسودا كالحا في نظر المؤرخين اليهود و المسيحيين و المسلمين خاصة

ونحن حينما ننقل هذه الشهادات والتصريحات لكبار علمـــاء الغـــرب ، غرضنا الأول من ذلك كشف الحقائق التاريخية و نزع الستار عما فعلته الكنيسة بالموريسكيين في إسبانيا من اضطهاد و همجية وبربرية لا نظير لها في التاريخ .ولنبدأ بقول ستانوودكب (STANWOODCAP)بعد أن نقل لنانية السلطات الإسبانية بعـــد زوال الحكم الإسلامي في تدمير الحضارة الإسلامية حيث قال : "... بل أكثر من ذلك أنهم قاموا بتلك الأداة المروعة للتعصب : محاكم التفتيش "[1]

ويقول جراهام إي – فوللر (GRAHAM FOLER) وإيان أو – ليـــسر (JAN ULSTER) " لقد ولى عصر التسامح الديني الواضح مع المسيحيين واليهود في ظـــل الحكم الإسلامي في إسبانيا ، وحل بديلا عنه التعصب الأعمى من جانب محـــاكم التفتيش الاسبانية . والتي كانت من نواح كثيرة نوعا من الجهاد المسيحي بمعنـــاه الأصيل "[2].

أما دورثي لورد (DORTIER LODER). فقد اعتبر أن محاكم التفتـــيش هـــي وصمة عار في التاريخ الإسباني ثم يعقب بعد ذلك بقوله" ... ولا يمكن الدفاع عن

---

[1] المسلمون في تاريخ الحضارة ، ص ٨٥

[2] الإسلام والغرب ، ترجمة : شوقي جلال ، (ط١ ؛ القاهرة : مركز الأهرام ، ١٩٩٧ م) ، ص٤٤

محاكم التفتيش التي سطرت أسوأ الصفحات في تاريخ إسبانيا .ولكننا نفسرها إلى حد ما بأنها كانت أطول وأعنف حالة وباء تميز بها ذاك العصر" [1] .

ويقول ول وايرل ديورانت (WOOL WAYER DYOURANT)"... ولكنها تبدت لنا الآن أنها أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية "[2] ويقول بيار فيلار(pierre vilar) عن محاكم التفتيش بأنها "...متعسفة في تطبيقها ، دنيئة في وسائلها "[3]. وهناك أقلام كثيرة كتبت عن محاكم التفتيش ،وكلها أجمعت على وحشيتها، وأنها هي السبب الأول في زوال الحضارة الإسلامية ، وأنها هي التي قتلت وهجرت ملايين من المورسكيين في إسبانيا بعد أن كانوا عمال مهرة ، وحرفيين ممتازين وتجار ناجحين .

المبحث الثالث :أعمال محاكم التفتيش ودورها في اضطهاد الموريسكيين

المطلب الأول : التنصير والإكراه على تبديل الدين

بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م، وتغلب راية الصليب على راية الهلال، وإحراز الجيش الإسباني النصر الكلي على المسلمين . أيقن الملك فرديناندو(Ferdinando) أن هذا النصر لن يدوم طويلا ، ولن يعطي نتائجه الكاملة المرجوة منه .وأن مملكته لن تعرف الاستقرار ، مادام الإسلام باقيا في إسبانيا بقوة .

---

[1] إسبانيا شعبها وأرضها ، ص١١٨ .

[2] نفس المكان .

[3] Histoire de l'Espagne , p202

ولهذا صمم على استكمال توحيد إسبانيا عقديا كما حدها وطنيا . ولكن ماهي الطريقة الناجعة لذلك؟.

في بداية الأمر أي في الأعوام التي تلت سقوط الأندلس أظهر الملك فرديناندو (Ferdinando) نوعا من اللين والتسامح مع المسلمين مكرا منه [1]، لخوفه من أي ثورة إسلامية تندلع فتهدد عرشه الملكي . خاصة وأن عدد المسلمين في ذلك الوقت مازال هو الغالب ، وروح الجهاد والحمية باقية في نفوسهم ، لم تنطفأبعد .

أما اليهود ، فقد عوملوا مباشرة بقسوة ووحشية لا نظير لها ، إذ أمهلتهم السلطات الإسبانية ثلاثة أشهر فقط لمغادرة إسبانيا ، وإلا كان مصيرهم القتل . فخرج من جراء هذا القانون مئات الآلاف من اليهود ، اتجهت غالبيتهم إلى البلاد الإسلامية وخاصة الدولة العثمانية .

أما العرب في غرناطة ، فقد عين لهم الأسقف فرديناندو تالافيرا(FerdinandoTalavera) وكان "رجل خير واسع الأفق في التفكير يحافظ على حقوق العرب"[2] . ولهذا نال إحتراما وتقديرا كبيرين من طرفهم. وقد بذل هذا الأسقف جهدا كبيرا لتنصرهم "بالإقناع إذ استعمل لغتهم وفرض ذلك على

---

١. [1] كان من نتائج هذه السياسة أن هاجر الكثير من المسلمين إلى غرناطة للإستيطان فيها . أنظر : المؤلف مجهول ، أخبار مجموعة ،ص ٤٠٣.

٢. [2] ستانلي لان-بول ، قصة العرب في إسبانيا ، ترجمة : علي الجارم ، (ط.١؛ مصر :دار المعارف ، (دت)) ، ص ٢١٦.

رجال الدين الآخرين "[1].كما أنه كان يشارك العرب في أعيـــادهم وأفـــراحهم ، ويتقرب إليهم بكل الطرق والحيل .وقد نجح في تنصير ثلاثة آلاف مسلم من ضمنهم أكابر القوم . ولكن غالبية السكان رفضوا ذلك ، بل اعتبروا مجرد التفكير فيه خروجا عن الإسلام . مما أغضب ذلك الملكين فرديناندو (Ferdinando) وزوجته إيزابال(Isabell) وأظهرا عدم رضاهما عـــن النتـــائج المـــسجلة . فعـــين الكاردينال فرنسيسكو كيمناس دي شناروس (Francixo xi manz de cisneros)[2] أسقفا على غرناطة ، ورئيسا على فرديناندو تالافيرا(FerdinandoTalavera) وأبدى غضبه الشديد على السياسة التي اتبعها هذا الأخير . فأقنع الملكة-وكان له سلطان عظيم عليها- أن تنقض العقود والعهود التي قطعتها مع المسلمين أيام تسليم غرناطة "ووسوس إليها أن في حفظ عهد المسلمين خيانة لعهد الله "[3] . فأصدرت مرسوما ملكيا توجب فيه على المسلمين كافة اعتناق النصرانية ، لأجل انقاد أرواحهم من الشياطين التي تسكن فيهم على حد زعمها[4].

---

[1] جمع و تقديم د/ عبد الجليل التميمي ، تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية ، مقال لـــ : قريبت دروست ، ترجمة : د/ نجيب بن جميع ، ((دط) ؛ زغوان : مركز الدراســـات و البحوث العثمانية و المورسكية ، ١٩٩١ م) ص ٥٧ .

[3] ستانلي لان-بول ، قصة العرب في إسبانيا ، ص٢١٦ .

[4] و هكذا نلاحظ بوضوح أن رجال الدين هم الذين شجعوا الحكومة الإسبانية علـــى فـــرض التنصير على المسلمين . أنظر : جمال يحياوي ، سقوط غرناطة و مأساة الأندلـــسيين ١٤٩٢ – ١٦١٠ م ، (ط١ ؛ الجزائر : دار هومه ، ٢٠٠٤ م) ،ص ٨٨ – ٩٠ .و أنظر أيضا : أحمد رائف ، و تذكروا من الأندلس : الإبادة ، (ط١ ؛ القاهرة : الزهراء للإعلام ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) ، ص ٣٣٧ .

والحق يقال ،إن الملكة كانت في بداية أمرها مترددة في اتخاذ هـــذا القـــرار الخطير للأسباب التالية :

أولا: كثرة عدد العرب في إسبانيا ، مما يجعلهم يشكلون خطرا حقيقيا على الدولة في حالة قيامهم بثورة ضد العرش .

ثانيا: الحاجة الماسة للإقتصادالإسباني لليد العاملة المورسكية ، لما تتميز به من نشاط وإتقان ، أدت إلى تمسك النبلاء ورجال الإعمال بهم واعتبـــارهم ثـــروة لا يمكن التخلي عليها .

وقد كان رد العرب على قرار الملكة بالرفض التام ، جملة وتفصيلا مفضلين الموت-إن اقتضى الأمر- على ترك عقيدتهم .وأظهروا نوعا من الازدراء والتحقير للمرتدين منهم ،واعتبروهم خونة في حق دينهم وأمتهم .

وبهذا خابت مساعي وجهود الكاردينال كيمينـــاس (Ximanz) في تنـــصير المسلمين.

وبينما كانت امرأة تساق إلى السجن بتهمة الإسلام ، وهي تصيح وتستثير همم وعزائم أهل البيازين إذ "وثبوا إلى أسلحتهم ، وأنقدوها واشتعلت نار الفتنـــة بغرناطة وتحفز أهلها للقتال"[1] وقرروا الجهاد ضد الإسبان[2] .ولم يستطع أحدا تهدئة الوضع ، إلا بعد أن تدخل الأسقف تـــالافيرا (Talavera) ، إذ ذهـــب إلى حـــي المسلمين هو وبعض رجال الدين ، وحاور العرب وأقنعهم بترك السلاح . بعد أن

---

[1] ستانلي لان-بول ، المصدر السابق ، ص٢١٧.

[2] استمر المورسكيون في مقاومة الإسبان ، إلى غاية رحيلهم منها و كانت أشهر الثورات ثورة : ١٥٢٥ م و ١٥٦٨ م ١٥٦٩ م .

استشهد عدد كبير منهم ، وسبيت نسائهم ، وأخذ أطفالهم ليتربوا في أحضان الكنيسة .

أما الكاردينال (Ximanz) فقد انتهز هذه الفرصة وأعلن أن المعاهدة التي تم توقيعها مع حكام غرناطة سنة ١٤٩٢م أصبحت غير نافذة وغير صالحة .وأعطى أوامره الصارمة إلى رجال الدين لإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية ، ومن يرفض ذلك فله أحد خيارين:

إما مغادرة غرناطة بشرط أن لا يحمل معه أي شيء . فهاجر الآلاف من المسلمين من إسبانيا [1]،وقد تعرضوا إلى غارات الجيش الإسباني وقطاع الطرق ، فهلك الكثير منهم أثناء الهجرة ،ولم تصل إلا أعدادا قليلة منهم إلى المغرب العربي .

ثانيا: أو أن يختار الموت إن أراد البقاء . فاختار غالبية المسلمين التنصر ظاهرا ، على مغادرة الوطن ومعاناة السفر، بعد أن سمعوا الأخبار المأساوية التي حدثت لإخوانهم من مآسي أثناء هجرتهم.

وصفوة القول نقول أنه قد استطاع هذا الكاردينال المتعصب خلال مدة رئاسته على الأسقفية في غرناطة ، من تنصير عشرة آلاف مسلم[2] . ثم ختم أعماله القبيحة بعمل أقبح ، وهو إقدامه على حرق مئات الآلاف من الكتب الثمينة، بعد أن جمعها في ساحة عمومية . ولم يبق منها إلا ثلاثمائة كتاب، تمثل عصارة وزبدة

---

[1] يقدر عدد الذين هاجروا من الأندلس في تلك الفترة بنحو ثلاثمائة ألف شخص. أنظر أحمد رائف : وتذكروا من الأندلس ،ص ٣٣٨

[2] استمر رجال الدين بعد وفاة الكاردينال كيميناس(ximanz) في تنصير المسلمين حيث انتشروا في كافة أرجاء اسبانيا . إلا أنهم تخلوا نوعا ما على إجبار المورسكيين على اعتناق النصرانية قسرا.

تفكير الحضارة الإسلامية، والغريب في الأمر حقا أن الكنيسة ورجالها الحمقى باركوا هذا العمل الوحشي ، واعتبروه خدمة جليلة للمسيحية، وقربانا إلى الله[1].

وبهذا ، دخلت إسبانيا مرحلة جديدة ، في تعاملها مع المورسكيين . الذين أظهروا دينين مختلفين، خوفا من محاكم التفتيش الرهيبة"وبذلوا كل ما يملكون من جهد للحفاظ على دينهم ، بالاعتماد على المداراة والمصانعة كما سموها ، لأنهم لم يجدوا من وسيلة أخرى تسمح لهم بالعيش في سلام وسط هذه التركيبة الاجتماعية "[2] . وهذا الأسلوب هو ما يطلق عليه اسم التقية . بعد أن أفتى لهم مفتي وهران الشيخ أحمد بن بوجمعة الوهراني ، جواز ذالك للضرورة .وأرسل لهم رسالة مطولة سنة ١٥٠٤ م يحثهم فيها على استعمال أسلوب التقية من أجل الحفاظ على دينهم وشخصيتهم الإسلامية ، وأهم ما جاء في هذه الرسالة ما يلي :

- إذا تعذر عليهم الصلاة في النهار ، فليؤدوها في الليل .
- إذا أجبروا على شرب الخمر ، فليشربوا مع اعتبار ذلك أمرا فاحشا .
- يمكن استخدام إشارات بدل الجهر في الصلاة .
- يمكن تعاطي الربا ، بشرط أن تنفق الفائدة على الفقراء [3].

---

[2] تأسف الكثير من علماء الغرب ومفكريهم على هذا العمل الهمجي ، واعتبروه خسارة علمية للإنسانية لا تقدر بثمن . أنظر: ستانوودوكب ، المسلمون في تاريخ الحضارة ، ص ٨٥ . وأنظر أيضا : محمد العمروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ((دط) ؛ لبنان : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٢ م) ، ص ٢٥٠ .

[2] جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ،ص ١٨١ .

[3] هذه الوثيقة عثر عليها المؤرخ محمد عبد الله عنان في مكتبة الفاتيكان بروما و تشتمل على أربع صفحات . كما أنه عثر على نسخة أخرى باللغة الالخمادية في مدريد . أنظر : دولة الاسلام في الاندلس (٣٤٤/٥)

وبهذه الطريقة ، حافظ المورسكيون على دينهم وعباداتهم ، طوال أزيد من قرن . بالرغم من فقدان هذه العبادات لروحها الحقيقي ،وهذا راجع بطبيعة الحال إلى الرقابة الشديدة التي كانت تفرضها محاكم التفتيش على المورسكيين . والتي كانت تطبق عليهم أقصى العقوبات في حالة وجود أدلة أو حتى شكوك تثبت ممارستهم للعبادات الدينية. وهي غالبا ما تكون الحرق في ساحات عمومية .وهذا ما اشتهر عن محاكم التفتيش إذ يقدر المؤرخون أن الذين قتلوا حرقا يمثل ٤٠٪من عدد الذين استشهدوا . مثل ما جرى للمورسكية " فيكتوريافيلومينا (Victoria Filemena) والتي أعطيت إحدى الخيارين إما " التخلي نهائيا عن دينها، واعتناق الدين المسيحي بإخلاص أو المحاكمة . إلا أنها اختارت الحل الثاني، وهذا هو السبب في محاكمتها وإحراقها في الساحة العمومية "[1].

- أو كحال الشاب خوان كوبانيرو من سرقسطة الذي حرق وقطع إربا إربا بسبب تمسكه الشديد بالإسلام ورفضه الدخول في المسيحية[2].

ولكن كل هذه الوسائل والمحاولات الرامية لتنصير المسلمين أثبتت فشلها ، وهذا ما أعترف به الملك فيليب الثالث(Philipe III) الذي قال :"...إنكم على علم بمحاولاتي مدة سنين طويلة لتنصير مورسكيي مملكة بلنسية وكذلك قشتالة

---

[1] -جمع وتقديم د-عبد الجليل التميمي ، مهن المورسكيين الأندلسيين حياتهم الدينية ، مقال لـ: د-رجاء ياسين البحري ، ترجمة : د-عبد الجليل التميمي ،((دط) ؛زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والورسكية ،١٩٩٥) ، ص٢٨.

[2] د/عبد الجليل التميمي ، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين المورسكيين ، (ط١؛ زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية ، ١٩٨٩م) ، ص٥٧.

...وبإصدار أوامر العفو منة مني عليهم ... وبالنتائج الهزيلة المحصلة عليهم . إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد بل على العكس لم يزدهم ذلك إلا إصرارا "[1].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة تمسك وتعلق المورسكيين بعقيدهم الإسلامية.

والغريب أننا لا نجد من المصادر الإسلامية ، من تكلمت عن هذه المأساة المورسكية. سوى إشارات سريعة ومجملة فقط.إذ إن جميعها تناولت فترة حكم المسلمين إلى سقوط غرناطة .

يقول المقرئ وهو يصور لنا بإجمال ما حل بالمورسكيين . "...ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة ، على أن آل الحال لحملهم على التنصير سنة أربع وتسع مئة.بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم ، أنهم قالوا إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ، ففعلوا ذلك . وتكلم الناس ولا جهد ولا قوة. ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو أن يقول للرجل المسلم إن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا"[2].

وينقل لنا أحد المورسكيين ، والذي عايش تلك الأحداث والمآسي مباشرة فيقول:"...ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر ، وأكرههم عليه وذلك سنة أربعة وتسعمائة ، فدخلوا في دينهم كرها . فصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله اللهم إلا من يقولها في قلبه . وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله

---

[1] –جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص٦٧ .

[2] نفح الطيب (٥٢٧/٤)

وتلاوة القرآن . فكم من عين باكية وقلب حزين"[1].ثم ينقل لنا المعاناة النفسية التي عانى منها الآباء وهم يرون أبناءهم وبناتهم"يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات . فلا يقدرون على منعهم ولا عن نهيهم ولا عن زجرهم . ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب " [2]. ولكن كل هذه الجهود والمساعي المبذولة من طرف رجال الدين والدولة الإسبانية ، فإنها لم تعط النتائج المرجوة منها . فلم يستطيعوا أن ينصروا إلا أعداد قليلة جدا ؛ وهذا مرده إما إلى الجهل أو الخوف أو الطمع . أما الغالبية العظمى من المورسكيين فقد بقت مخلصة وفية لدينها أزيد من قرن من الزمن ، بدليل خروج مئات الآلاف منهم أيام الطرد النهائي . دعك عن الذين هاجروا قبل وبعدالطرد .

وهذا ما دفع الكنيسة إلى دراسة الأسباب التي تقف وراء ذلك ، فوجدت أن اللغة العربية هي من الأسباب الرئيسية ،في إعاقة تنصير المورسكيين .فقررت إزالتها من إسبانيا .

المطلب الثاني: محاربة اللسان العربي

بعد أن اتخذت السلطات الإسبانية القرار بإجبار المورسكيين على التنصر ، رأت أن ذلك لن يعطي أية فائدة أو نتيجة ، ما لم يتم القضاء على اللسان العربي .إذ إن اللغة العربية كانت تقف كسد منيع أمام انتشار المسيحية بين المورسكيين .

---

[1] –مؤلف مجهول ، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، تحقيق :شكيب أرسلان ، ((دط) ؛ مصر:مطبعة المنار ، ١٣٤٣هـ–١٩٢٥م) — ص٤٠٥.

[2] المرجع نفسه ص٤٠٥.

حيث أنها أوجدت نوعا من التلاحم والترابط فيما بينهم . فهي دائما تذكرهم بماضيهم وتراثهم الإسلامي الزاهر . وتنبههم أنهم أمة مختلفة اختلافا جوهريا عن الأمة الإسبانية المسيحية .

ولهذا كان القساوسة دائما يكررون أن بقاء اللغة العربية يعتبر خطرا على المسيحية . وأن التنصير لن يعطي ثماره مادام العرب يتكلمون بها . فأصدرت السلطة الملكية عدة قرارات لمحاربة اللغة العربية . وكان الملك شارل الخامس (Charel V) هو أول من أصدر قرارا ملكيا يجبر فيه الموركسيين على التخلي عن اللغة العربية ، وإبدال أسمائهم بأسماء غربية . وأن ينكبوا على تعلم إحدى اللغات الثلاثة : الرومنثية ، البلنسية ، أو اللغة القشتالية. وأمهلهم عشرة سنوات لتنفيذ هذا القرار . ولكن مساعي شيوخ بلنسية خففت هذا القرار ثم بعد ذلك أبطلته مقابل دفع ضريبة سنوية تقدر بـ ٨٠ ألف دوكات(Ducades)[1] .أما المناطق الأخرى فقد طبق عليهم القرار الملكي.

ولكن سياسة الملك شارل الخامس(Charel V) كانت عموما تتسم بنوع من اللين والتسامح مع الموركسيين . مما أدى إلى فشل جميع قراراته .

ولكن ما إن جاء الملك فيليب الثاني (Philipe II) إلا وجدد القرارات التي أصدرها قبله الملك شارل الخامس(Charel V) . وكان هذا الملك متعصبا شديد التعصب ضد الموركسيين . فكان أول عمل قام به أن قرب رجال الدين وجعلهم من أقرب المستشارين له ، وأعطاهم سلطة مطلقة في جميع الميادين بحيث أصبح

[1] -أنظر :عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (٣٥٤/٥)

حتى الأشراف يخافون منهم ،ولا يجرؤون على مناقشة قراراتهم [1]. فكان أول عمل قام به الملك فيليب الثاني أن حرم على المورسكيين التكلم باللغة العربية أو الكتابة بها . ومنحهم ثلاث سنوات فقط لتعلم اللغة القشتالية . ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ أو يتخاطب باللغة العربية في أماكن عامة أو خاصة . وكل المعاملات التي تجري باللغة العربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاة وغيرهم"ويجب أن تسلم الكتب العربية من أية مادة في ظرف ثلاثين يوما إلى رئيس المجلس الملكي في غرناطة"[2].

وقد نزل هذا القرار كالصاعقة على نفوس المورسكيين . ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا سوى التسليم للأمر الواقع .بإستثناء شيوخ بلنسية الذين خففوا العقوبات المسلطة على المخالفين للقوانين . ولم ينجحوا في إقناع الملك عن التراجع عن قراره أو إلغائه .

أما في غرناطة ، فبعد أن يئسوا من رجوع الملك عن قراره الجائر ، و الذي لم يشهد التاريخ الإنساني مثله في الوحشية . أخذوا يتهامسون في الخفاء بالثورة على الملك.وبالفعل فقد قاموا بانتفاضة عارمة تحت قيادة محمد بن أمية[3] . حقق خلال ثلاث سنوات من الثورة الكثير من الانتصارات العسكرية والسياسية ،

---

[1] -أنظر سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، ترجمة : عفيف البعلبكي ، (ط١؛بيروت:دار العلم للملايين ، ١٩٦١م) ص٤٦٠.

[2] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (٣٥٨/٥)

[3] استعاد المورسكيون أثناء الثورة ، أسمائهم العربية ، و بعض عاداتهم الإسلامية . أنظر : عبد الجليل التميمي ، تطبيق المورسكيين ، مقال لـ: د/ خوان أرنيدا دونثال ، تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الدينية من خلال محكمة قرطبة ، ترجمة : رضا مامي ، ص ١٧٢ .

وأرعب السلطة الملكية والروحية . وكادت أن تدوم هذه الثورة لولا المكائد والدسائس الإسبانية، ووجود الخيانة في صفوف المورسكيين .

وبذلك فشلت هذه الثورة في تحقيق ما كان يطمح إليه المورسكيين ، واستطاع الجيش الإسباني سحقها والقضاء عليها ، بعد أن ارتكب أبشع الجرائم الإنسانية .يقول سيد أمير علي : "....وبعد ثلاث سنوات من القتال المتواصل تمكن دون جوان النمساوي من سحق ثورتهم ، وأمعن فيهم ذبحا وقتلا وتخريبا . فكان الرجال والنساء والأطفال يذبحون على مرأى منه واستحالت قرى البكراس ووديانه مقابر جماعية واسعة .وحتى أولئك المساكين الذين إلتجأوا إلى الكهوف لم ينجوا من الهلاك إذ أشعلت النار على أبوابها فقتل من بداخلها خنقا بالدخان "[1].

وبعد أن تم القضاء على الثورة المورسكية ، نشطت محاكم التفتيش نشاطا كبيرا في مراقبة ومعاقبة المورسكيين ، وأعلنت أن التكلم بالعربية عقوبة تستلزم السجن أو الإعدام ، بل إن مجرد إحراز الكتب العربية حتى ولو كانت غير دينية جريمة يعاقب عليها القانون وأوجبت على المورسكيين إخراج جميع الكتب العربية وتسليمها إلى السلطات الإسبانية"فأصدرت سلطة أراغون في ١٥ فبراير عام ١٥٩٣م قرار يدعوا فيه كافة المرتدين والمدجنين من المورسكيين ، إن أرادوا التماس العفو من قداسة الكنيسة أن يخرجوا كل ما يملكونه من الكتب العربية . حتى تغفر خطاياهم وتزول عنهم شبهة الاتهام والمتابعة"[2] .

وبموجب هذا القرار قدم عدد كبير من المورسكيين كتبا قيمة إلى محاكم التفتيش.قضت عليها هذه المحاكم الجاهلة بالحرق . فأحرقت في مدينة

---

[1] مختصر تاريخ العرب ، ص ٤٦٠ .

[2] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (٣٥٨/٥)

أراغون(Aragon) وحدها آلاف من الكتب والمصاحف العربية . ويـــذكرنا هـــذا العمل الوحشي ، بعمل الكاردينال كيميناس(Ximanz) عام ١٥٠٠م في غرناطة .

و لم يكتف الملك فيليب الثاني (PhilipeII) ، بمحاربة ومنع اللغة العربية بـــين الموركيين. بل أجبرهم على تعلم اللغة القشتالية وخاصة الأطفال منـــهم ، إذ أرسلهم إلى الكنائس لتعلمها . كما أنه أرسل بعثات علمية إلى الأماكن المعزولـــة والمأهولة بالموركيين لتعليمهم القراءة والكتابة باللغة القشتالية . كما أنه ســـعى جاهدا إلى نشر الكتب الدينية باللغة القشتالية والبلنسية.

وفي المقابل سن قوانين صارمة ضد من يتكلم باللغة العربية من الموركيين .فكل موركي يوجد عنده كتب عربية فذلك "من أقوى الأدلة علـــى الـــردة . ويعرض المتهم لأقصى أنواع العذاب والعقاب "[1]. وباختصار أصبح إحراز الكتب العربية في إسبانيا تهمة"يجر صاحبها إلى مشانق محاكم التفتيش"[2] أو يرمى " في محرقة ليحرق حيا "[3].

وبهذا أصبح الإشكال اللغوي في إسبانيا مطروحا بقوة فكل "كلمة تأتي على لسان موركي تكون سببا للشك" [4] وكل من يجدونه حاملا لأي كتاب بالعربية

---

[1] .عبد الله عنان ، المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .

[2] ، المرجع نفسه ، ص ٣٦١

[3] .لوي كارديك ، الموركيون الأندلسيون و المسيحيون المجابهة الجدلية (١٤٩٢- ١٦٤٠ م) ، (ط١ ؛ تونس : المجلة التاريخية المغربية ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعيـــة ، ١٩٨٣ م) ، ص ٢٧ .

[4] د/ عبد الجليل التميمي ، تطبيق الموركيين ، مقال لـــ : خـــوان أرنـــد دونثـــال : تطبيـــق الموركيين الأندلسيين للشعائر الدينية في قرطبة ، ص ١٧٢ .

، فهو في نظر محاكم التفتيش مجرم خارج عن العقيدة المسيحية . مثل قضية **لوكي** (luque) فعندما فر من السجن و قبض عليه ، وجدوا عنده "ورقة كتبت باللغة العربية ، فأحالوه على محكمة التفتيش ".[1] أو كحال **إيناس دي سوتوا** و التي سجنوها " و اتهموها بامتلاك كتاب القرآن " .[2]

و حتى أن بعض المسيحيين لم يسلموا من هذه العقوبات ، كحال رجل مسيحي وجدوه حاملا لورقة " كتب عليها باللغة العربية بعض الصلوات التي ينص القرآن عليها " [3] فأحالوه على محاكم التفتيش .

و هكذا يتبين لنا شراسة محاكم التفتيش في محاربة اللغة العربية بأي وسيلة ممكنة سواء كانت شرعية أو غير شرعية .

أما في البرتغال ، فقد كانت هناك فترة زمنية طويلة بين إعلان التنصير ، و إعلان تاريخ تحريم اللغة العربية. ففي سنة ١٥٦٧م صادقت السلطة البرتغالية ، على مرسوم يحرم فيه إبراز أي مظهر ثقافي يخالف المظهر البرتغالي . فاستعمال اللغة العربية ، و لبس اللباس الإسلامي ...إذ لم يرض المجتمع البرتغالي ،إلا يرى هوية ثقافية مسيحية فقط . فلا يكفي في البرتغال أن يظهر الشخص أنه على النصرانية ، ما لم ينسلخ انسلاخا كاملا من المظهر الخارجي . و يندمج في المجتمع اندماجا كليا . فمجرد التصرف على طريقة المورسكيين، أو التكلم بلغتهم يعتبر خروجا عن الدين ، و هرطقة يجب مقاومتها . فكان المجتمع البرتغالي يطلب من

---

[1] نفس المكان .

[2] ، المرجع نفسه ، ص ١٧٥ .

[3] ، نفس المكان

المورسكيين " إنفساخا فوريا وكليا للمرتد عن هويته الثقافية "[1]. بـــل " لم يكـــن يكفي في نظر ذلك المجتمع أن يصدق المرتدون في ردتهم و أن يعتنقوا المسيحية عن صدق . بل كان ينتظر منهم أن يتحولوا فورا إلى برتغاليين و أن ينسوا كلية لغتهم "[2]. و لم يكن يطيق الإنسان البرتغالي سماع اللغة العربية أو أية لغة أخرى ســـوى اللغة البرتغالية ، فلم يكن يؤمن "إلا بمجتمع واحـــد و متناســـق لا يعـــرف أي اختلاف "[3]. و كانت محاكم التفتيش لا تفرق بين اللغة و اللباس و الفولكلور و الإسلام ، فكل هؤلاء سواء .

و السؤال الذي نطرحه هو: هل حققت محاكم التفتيش أهدافها في طمس الثقافة الإسلامية و إزالة اللغة العربية؟.

الجواب لا شك أنه " في الوقت الذي كان فيه المجتمع المسيحي لا يقبل أي اختلاف لغوي ، أو ثقافي . كان المغربي بدوره غير مستعد للتخلي عن لغته و عاداته و تقاليده التي كان يجد فيها ذاته و استقراره "[4] . و تحدى محاكم التفتيش ، و سعى بكل ما في وسعه لإبطال القوانين المسيحية . فقام بثورة في جبال البشرات ، و لكنه انهزم ، فانتقل إلى استعمال أسلوب التقية و التي كانت هـــي الوســـيلة الوحيدة للحفاظ على الموروث الحضاري . كما أنهم أنشأوا الكثير من المساجد و المدارس السرية في جميع أنحاء إسبانيا

---

[1] أحمد بوشرب ، مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر ، (ط١ ؛ الرباط : منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، ١٩٩٦ م) ، ص ١٣٢ .

[2] نفس المكان .

[3] نفس المكان .

[4] نفس المكان

والبرتغال . لتلقين أطفالهم اللغة العربية و العقيدة الإسلامية . و القصة التي ينقلها لنا المؤرخ شكيب أرسلان[1] عن أحد المورسكيين الذي عايش تلك المرحلة العصيبة من حياة الأمة المسلمة هناك . و قد نجاه الله تعالى من محاكم التفتيش و فر هاربا من إسبانيا و هو محمد بن عبد الرفيع الأندلسي ، نقلا عن كتاب مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لأبي عبد الله محمد أبو جندار ، و خلاصة قصته هي أنه عندما كان طفلا صغيرا كان يتعلم في كنائس النصارى خلال النهار ، و كان والده يعلمه اللغة العربية و الإسلام سرا .و يكتب له الحروف العربية في اللوح . يقول عبد الرفيع الأندلسي: " و يأتي حرفا حرفا عن حروف النصارى تدريبا و تقريبا . فإذا سميت له حرفا عجميا كتب لي حرفا عربيا . فيقول لي : هكذا حروفنا . حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرتين " .[2] ثم يقول : " مع أنه رحمه الله قد ألقى نفسه للهلاك ، لإمكان أن أخبر بذلك عنه ، فيحرق لا محالة " [3]

"ولتجنب هذه المشاكل المزعجة ، سعى المورسكيون إلى تأخير تلقين أبنائهم التربية الدينية حتى يتمكنوا من احتمال مواجهة دواوين التحقيق"[4].

---

[1] هو المجاهد الكبير ، و المسلم العظيم و أمير البيان شكيب بن حمود بن حسن بن يونس بن أرسلان ، عالم في الأدب، السياسة ، و التاريخ . ولد بلبنان سنة ١٨٦٩ م و توفي في بيروت سنة ١٩٤٧ م عاش مدافعا عن الاسلام و الدولة العثمانية . من أهم كتبه : الحلل السندسية في الرحلة الاندلسية ، و لماذا تأخر المسلمون ؟ ، و حاضر العالم الإسلامي . أنظر : خير الدين الزركلي (١٧٤؛١٧٣/٢)

[2] لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، تعليق : شكيب أرسلان ، ((دط) ؛ القاهرة : عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٢ هـ) (٢٤/١)

[3] لوثرب ستودارد ، المرجع نفسه ، ص٢٤ -٢٥ .

[4] -عبد الجليل التميمي ، تطبيق المورسكيين ، ص٢٤.

وقد لعب الفقهاء دورا هاما في المحافظة على الشخصية الإسلامية للمورسكيين. إذ كانوا يعلمونهم اللغة العربية والدين الإسلامي في أماكن سرية للغاية . تحت الأرض، وفي الجبال والأماكن الخالية . ولهذا كانت محاكم التفتيش تنظر إليهم بعين الريب والشك.وتعتبرهم هم العدو الحقيقي الذي يقف في وجه التنصير [1]. لأن "التبشير الذي كان يقوم به الفقهاء ، كان يحي الشعلة والإيمان"[2]. فزادت السلطات الإسبانية من مراقبتهم و من التجسس عليهم ، وتسليط العقوبات الشديدة عليهم ، فحكمت على كثير من الفقهاء بالموت حرقا .ولكن رغم ذلك فقد استمروا في دعوتهم للمورسكيين على التشبث بالإسلام ولغته والذود عنهما . وبفضلهم حافظت مناطق ومدن كثيرة وخاصة الجنوبية منها على اللغة العربية . مثل بلنسية التي تعد من أكثر المناطق محافظة عليها .و لم تتخل عنها حتى يوم الطرد النهائي سنة ١٦٠٩م حيث جاء تقرير إلى محاكم التفتيش يثبت أن أهل بلنسية"كلهم عرب ، و لم يتخلوا قط عن هويتهم" [3]. بل يقول شكيب أرسلان ما أكثر من ذلك إذ "بقي إلى أوائل القرن التاسع عشر في نواحي بلنسية ،من يتكلم أهله بالعربي "[4]. أما في غرناطة فقد حافظت بدورها على اللغة العربيةإذ" إن قاضي مدينة القرار (Acolcoror) لاحظ سنة ١٥٧٧م أن المورسكيين

---

[1] -أنظر : لوي كارديك ، المورسكيون الأندلوسيون ، ص٧٧.

[2] -عبد الجليل التميمي ، تطبيق المورسكيين ، ص١٧٢.

[3] ، المرجع نفسه ، ص٣٥.

[4] لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي (٢٧/٢)

طردوا من مملكة غرناطة ، واستقروا في دائرة منطقة كانت يتكلمون لغتهم ، ومن الصعب إستلابها منهم "[1].

كما أن مدينة طليطلة لم تتخل عن اللسان العربي ، بل يقول شكيب أرسلان "أن اللغة العربية بقيت هي لغة الثقافة عند الإسبانيول ، ولغة معاملات الأخذ والعطاء . وبها تكتب الصكوك والعقود إلى سنة ١٥٨٠م "[2].

أما البرتغال فإنها لم تتخل عن اللغة العربية إلا بعد عقود من الزمن ، إذ استمر العرب هنالك في التشبث باللغة العربية وتسمية أبنائهم بأسماء عربية، وإقامة العبادات والأعياد الدينية بها[3] . ولكن بالرغم من فشل محاكم التفتيش من محو اللسان العربي في إسبانيا والبرتغال ، إلا أنها لم تفشل في إضعاف فصاحة اللسان المورسكي . وهذا نجده واضحا " في الكتابة المورسكية وفي الأدعية ، والأوردة .مما يدل على فقدان حاسة الذوق اللغوي وضياع مقومات اللغة العربية " [4].

ثم ابتكروا لغة جديدة -كشأن الأقليات المضطهدة- للتخاطب والاتصال فيما بينهم وهي خليط من اللغة الرومنثية الإسبانية -العامية اللاتينية- واللغة العربية . أطلق عيها اللغة الألخميادوية . وهذه اللغة تعبير عن رفض اللغة الإسبانية .

---

[1] عبد الجليل التميمي ، تطبيق المرسكيين ، مقال لـ فانسون بارنار، لغة المورسكيين ، ترجمة : عبد الجليل التميمي ، ص١٠٧.

[2] لوثرب ستودارد ، المرجع السابق ، (٢٧/٢)

[3] أنظر : بحث أحمد بوشرب : المجلة التاريخية المغربية ، ع٢٥,٢٦ تونس . جوان ١٩٨٢م .ص٤٤-٤٩.

[4] عبد الله حمادي ، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس ، ((دط) ؛تونس : الدار التونسية للنشر ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٩م) ، ص٣٣.

وبفضل هذه اللغة حافظ الموركيون على شخصيتهم الدينية . من خلال ترجمتهم للكتب العربية الدينية إلى لغتهم الجديدة.

وغالب الكتب التي كتبت باللغة الألخميادوية هي كتب دينية حيث تشكل ، نصف التراث المتبقي . ثم تأتي في المرتبة الثانية الكتب القصصية : وتدور في مجملها حول حكايات عن الفتوحات الإسلامية والشخصيات الشهيرة . ممزوجة بكثير من المبالغات والأساطير .ثم تأتي الكتب الجدلية : وهي عموما تدافع عن الإسلام وتظهر خصائصه وحسناته .وترد في نفس الوقت على الديانة المسيحية .

وأخيرا الكتب التشريعية وهي الكتب التي ألفها الفقهاء للتعريف بفرائض ومبادئ الإسلام للموركيين .

المطلب الثالث : محاربة العادات والتقاليد الإسلامية

تعتبر العادات والتقاليد لأي أمة من الأمم ، من المظاهر الخارجية التي تعبر تعبيرا صادقا عن عقيدة وهوية هذه الأمة .والتي لها تأثير روحاني كبير عليها . فهي دائما تنبهها على أنها أمة مغايرة للأمم الأخرى ، وأنها كائن منفصل انفصالا تاما عنهم . ولهذا تفطنت السلطات الإسبانية إلى ذلك . فكان الملك فردناندو (Ferdinando) هو أول من أصدر لائحة ملكية تحظر على كافة الموركيين ممارسة عاداتهم وتقاليدهم كاللباس والذهاب إلى الحمام ، والزواج على الطريقة الإسلامية ... وأمهل الموركيين بعضا من الوقت لتطبيق هذا القرار. ولكن كان رد الموركيين صارما فرفضوا هذا القرار وأصروا على التشبث بعاداتهم وتقاليدهم ، ورفضوا الاندماج في المجتمع الإسباني وبذلك فشل هذا القرار . وذلك راجع إلى

كثرة عدد المسلمين في تلك الفترة حيث إنّهم كانوا يمثلون الأغلبية السكانية في بعض المدن الكبرى كغرناطة وبلنسية... ثم جدد الملك فرديناندو (Ferdinando) قراره سنة ١٥١١م ولكنه فشل كفشله في القرار الأول ، حيث لم يعط أية نتيجة تذكر . فبقيت العادات والتقاليد تمارس جهرا . مما زاد هذا في تمسك المورسكيين بدينهم وهويتهم أكثر . فأغضب ذلك رجال الدين ، وأجبروا الملك شارل الخامس(Charel V) على إصدار عدة مراسيم ملكية تمنع فيه المسلمين عن ممارسة عاداتهم وتقاليدهم ، وتجبرهم على التماشي مع العادات والتقاليد الإسبانية فكان أول قرار أصدره سنة ١٥٢٦م خلاصته : الكف عن ممارسة العادات والتقاليد الإسلامية . ولكن المورسكيين تمكنوا من إلغائه بعد مفاوضات جرت بينهم وبين الملك ، مقابل أن يدفعوا له أموال طائلة كل سنة وهكذا بقي العرب محافظين على شخصيتهم الإسلامية . حتى تولى الملك المتعصب فيليب الثاني (Philipe II) ، فأصدر سنة ١٥٦٦م قانونا يمنع فيه المورسكيين من ممارسة أي نشاط حتى ولو كان بسيطا يدل على انه من الإسلام.كما أجبر أيضا المورسكيين على التخلي عن لباسهم الإسلامي وبذلك "فقد أكرهوهم على أن يخلعوا أزياءهم الوطنية الجميلة ، ليستبدلوا بها قبعات النصارى وسراويلهم " .ومن يخالف هذه القوانين فعقوبتهم إما أن تكون السجن مع الأعمال الشاقة أو الإعدام أو النفي . و أصبحت بذلك" أقل الحوادث و الحركات التي لا تمت بصلة إلى تقاليد أو عادات المجموعة المسيحية ، قد فسرت كعلامة على إتباع الدين المسيحي . و من شأنها أن تكون سببا لمزيد من التحريات " [1] . مثل الجلوس على الأرض أثناء الأكل ، أو الاستحمام يوم الجمعة

[1] عبد الله حمادي ، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس ، ((دط) ؛تونس : الدار التونسية للنشر ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٩م) ، ص٣٣.

... فهذه السلوكات و التصرفات كافية لتوجيه تهمة الكفر والهرطقة .و كان من نتيجة هذه السياسة أن دمرت الحمامات العامة ، والتي كانت تشتهر بها الأندلس . فأصبحت إسبانيا مكانا للقذارة و الأوساخ ، يقول حافظ عثمان عن حال إسبانيا في القرن السابع عشر : " ... لقد تجولت زائرا في بلديات إسبانيا فألفيت الشوارع في حالة قذارة تجاوزت بها شوارع نابولي ، و بعض أزقة الآستانة " [1].

و قد كان رد فعل المورسكيين على هذه الإجراءات القاسية ، بالعصيان و الثورة ، ثم بعد أن فشلت هذه الثورة ، استخدموا التقية كأحسن وسيلة للدفاع عن موروثهم الحضاري ، و لمعارضة العادات و التقاليد المسيحية .

و لقد تخلى المورسكيون ، تدريجيا عن العادات الإسلامية و خاصة اللباس الإسلامي . و أصبح بمرور الوقت من الصعب التفريق بين الموريسكي و الإسباني إلا بعد المخالطة و المعاشرة . فكلاهما يلبسان السراويل الضيقة ، و يضعان القبعات الزرقاء . و جميع نسائهم صارت مكشوفات الرأس و الوجه . بعد أن كان يسترهم اللباس الإسلامي الدال على الحشمة و الإحترام .و هذه السهولة في التخلي عن العادات الإسلامية ، مردها — و الله أعلم — أن الفقهاء أقنعوهم بترك هذه العادات ؛ حفاظا على حياتهم . لأن الدين هو الأهم ، فاللباس ليس هو الدين و الدين ليس هو اللباس [2]. و لكن على الرّغم من كل هذا ، فإن بعض المناطق الأندلسية النائية البعيدة عن محاكم التفتيش ،لم تتخل عن اللباس الإسلامي . واعتبرته جزءا من كيانها ووجودها رافضة بذلك الاندماج و الانصهار في المجتمع

---

[1] الإسلام و الصراعات الدينية ، ((دط) ؛ مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ م) ، ص ١١٨ .

[2] أنظر لوثرب ستودارد ، حاضر العلم الإسلامي(٢/٣١)

الإسباني ، كبلنسية إذ يقول شكيب أرسلان:" أما تحجب النساء في بعض قرى بلنسية، وفي بعض قرى الجنوب مثل :طريف فباق إلى يومنا هذا [1]".

أما في البرتغال ، فقد أصدر مرسوم ملكي سنة ١٥٦٧م يحرم على المسلمين ممارسة أي مظهر من مظاهر الثقافة الإسلامية ومنها العادات والتقاليد . وأوكلت مهمة معاقبة المخالفين إلى محكمة التفتيش ، والتي أصبحت تمثل السلطة الوحيدة المخول لها حماية الدين المسيحي . فكانت تعاقب "بكل صرامة ليس فقط من ارتد عن الكاثوليكية ، أو اتبع هرطقة معينة .بل كذلك من تبنى أي مظهر مهما كان بسيطا من مظاهر هوية ثقافية أخرى [2]". فلا تسمح للموريسكي أن يلبس اللباس الإسلامي ، أو يقيم حفل الزواج على الطريقة الإسلامية... كل ذلك محرم قانونا .

ولم يجد موريسكيو البرتغال من وسيلة للمقاومة ، إلا استعمال أسلوب التقية . إذ كانوا يظهرون مالا يبطنون . وأمام السلطة الروحية يتظاهرون بأنهم مسيحيين فيقيمون الزواج مثلا على الطريقة المسيحية ، ولكنهم إدا عادوا إلى البيت مباشرة تخلصوا من كل الآثار المسيحية ، وأعادوا عقد النكاح على الطريقة الإسلامية .

المطلب الرابع : محاربة الشعائر الإسلامية

ما إن وطأت قدم الجيش الإسباني غرناطة سنة ١٤٩٢م ، حتى كان أول عمل قام به الكاردينال ميندسى(Ménades) أن نصب راية الصليب فوق أبراج قصر

---

[1] المرجع نفسه (٢٧/٢)

[2] أحمد بوشرب ، مغاربة البرتغال ، ص١٣٠.

الحمراء ، وحول مساجد المدينة إلى كنائس وفي مقدمتها المسجد الكبير . وهذا في احتفال كبير أقامته السلطة الروحية والملكية تعبيرا عن السروروالإبتهاج .

وبعد تحويل المساجد إلى كنائس بدأت عملية تنصير المسلمين ومحاربة الدين الإسلامي بجميع الطرق الممكنة . إذ أدركت الكنيسة أنه هو الذي يقف أمام ردة المسلمين ، فهو يمثل "إحدى الجرئيات الهامة التي تمثل هوية هذه المجموعة ، وعليه فهو يعرقل مشروع الإندماج الذي كان قد سطرته "[1].

وحقيقة لقد كان الدين الإسلامي هو العائق الأكبر أمام الكنيسة . فهو يعتبر الإسمنت القوي الذي جعل المورسكيين في الأندلس كتلة واحدة ، رافضة للدين والثقافة المسيحيين معا ، فخورة بانتمائها العقدي والحضاري .

فأصدر الملك فرداندو(Ferdinando) قرارا يجبر فيه المورسكيين على التنصير ، وترك الشعائر الإسلامية ، حتى ولو كانت بسيطة لا تدل على جوهر الدين ، فمنع الصلاة ، والصيام ، والحج والأعياد ... بل أجبرهم على ممارسة الشعائر المسيحية كشرب الخمر ، وأكل الخنزير ، والسجود للصلبان وحمل الصليب ...

ففضلت أعداد غفيرة من المورسكيين الهجرة من إسبانيا على الردة والكفر ، محتملين مشاق الطريق وصعابه .

ثم جدد الملك فرداندو(Ferdinando) مرسوم ملكيا أخر يتضمن إغلاق جميع المساجد الموجودة في إسبانيا مع ملحقاتها . ولكن المورسكيين لم يعبأوا بهذه القوانين ، وبقوا يمارسون الشعائر الإسلامية جهرا . ثم لما جاء الملك شارل الخامس (Charel V) جدد مرة أخرى هذه القوانين ، فأغلق جميع دور العبادة ، وراقب

[1] عبد الجليل التميمي ، تطبيق المورسكيون ، ص١٦٦.

المورسكيين مراقبة شديدة . ولكن في الأخير رخص لهم بفتح بعض المساجد المغلقة ، وممارسة الشعائر الإسلامية مقابل دفع ضريبة سنوية للدولة . ولهـذا نقـول إن ممارسة الشعائر الإسلامية قد ظلت تمارس بشيء من الحرية في عهده . إلى أن جاء الملك فيليب الثاني(philip II) فشدد في مراقبة المورسكيين تشديدا بليغا . وحارب كل شعيرة من شعائر الإسلام ، وأغلق جميع المـساجد دون اسـتثناء ، وأعطـى السلطة المطلقة لمحاكم التفتيش لمعاقبة الخارجين عن القانون . فزج بالآلاف مـن المورسكيين في السجون . وكانت التهم الموجهة إليهم أربعة أنواع:"الأول يهـم تطبيق الشعائر الإسلامية ، أما الثاني : فيتعلق بكل ما ينجر عـن رفـض ونقـد المعتقدات المسيحية . أما بقية التهم فهي تأكيد لكل ما ترفضه الكنيسة بخصوص مادة الجنس ... فالأشخاص المتهمون بتطبيق الشعائر الإسلامية يمثلـون ٦٧,٥٨%"[1]. يقول المؤرخ لوي كارديك (Louis cardaillac)" إن الإتهامات الموجهة ضـد المورسـكيين كانت تتعلق في نفس الوقت بالظواهر الدينية والإجتماعية "[2].

والأستاذان عبد الجليل التميمي ولوي كارديك (Louis cardaillac) ينقلان لنا الكثير من الحالات و القضايا التي حكم عليها على المورسكيين بسبب تطبيقهم للشعائر الإسلامية . مثل حالة فالا نوفاز (Valla nunez) الذي حوكم من طـرف محاكم التفتيش بسبب أنه امتنع عن أكل لحم الخنزير .أو كحـال هرنانـدو دي تشيننشا(Hernando de chincha) الذي حوكم أيضا بسبب أنه "يحافظ على ديـن محمد ، ويقوم بالإحتفالات ويطبق العادات الإسلامية "[3] . أو كحالة تيثيليـا دي

---

[1] عبد الجليل التميمي ، المصدر السابق ،ص ١٧٨ .

[2] المورسكيون و المسيحيون ، ص ٩٨ .

[3] المرجع السابق ،ص ١٧٣ .

روخاس (Cecilia de roas) التي عذبت بسبب أنها كانت تصلي . أو كحالة إسبابال. بارث (Isabelperg) والتي حكمت عليها محكمة التفتيش بسبب أنها استيقظت لتناول السحور [1]. فهذه الحالات تعتبر عند محكمة التفتيش هرطقة يجب معاقبة المتلبسين بها، وتقرر نوع العقوبة التي تسلط عليه وهذا راجع إلى نوع الهرطقة . وبهذا ضيق على المورسكيين ممارسة شعائرهم الدينية ، وأصبحوا يجدون صعوبة كبيرة في ذلك . فتصبح التقية في هذه الحالة هي أحسن وسيلة للمحافظة على دينهم . فهم مثلا إذا "طلب منهم قراءة الإنجيل فإنهم لا ينطقون الكلمات السليمة ، و يختصرون الكثير من العبارات . وكثيرا ما يغلقون بيوتهم يوم الأحد موهمين الإسبان وكأنهم ذاهبون إلى الكنيسة"[2] .أو كانوا عندما يطلب منهم حضور القداس المقدس فإنهم يتحيلون حيلا كثيرة مثل عدم وجود الوقت للحضور . وعندما يجبرون على الحضور إلى القداس ، فإنهم لا يلقون بالا لما يقوله الراهب . بل يظهرون بعض الأحيان استهزاءهم لبعض ما يقوله الراهب .كما أنهم كانوا يفرون من تعميد أبنائهم ، وإذا عمدوهم فإنهم يزيلون الماء المقدس عن أجسامهم مباشرة بعد عودتهم من الكنيسة .

أما عن ممارسة الشعائر الإسلامية عند المورسكيين ، فإن الملاحظ والدارس للتاريخ المورسكي يجد أنهم لم يتخلوا إطلاقا عن ممارسة هذه الشعائر حتى يوم الطرد النهائي . وهذا في أماكن سرية للغاية إما تحت الأرض أو في أقبية البيوت ، فكانوا يؤدون الصلاة في وقتها بشكل جماعي أو فردي . كما كانوا أيضا يقدسون

---

[1] جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص ١٨٧ .

[2] جمال يحياوي ، المصدر السابق ، ص١٨٧ .

يوم الجمعة ويعتبرونه من الأعياد الإسلامية الهامة . فكانوا يتوقفون عن كل نشاط تجاري في هذا اليوم ، كما " كانوا يرتدون الملابس النظيفة ويستحمون "[1].

كما استمروا أيضا في صيام رمضان ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . مستعملين التقية والحيلة كأحسن وسيلة للإفلات من محكمة التفتيش مثل حالة فرنسيسكو القرطبي (Francisco de cordoba) الذي كان يصوم رمضان كاملا ، وكان إذا دعي للغداء "فإنه يرفض بحجة أنه فاقد للشهية ، وأنه إدا دعي أثناء الأكل فإنه كان يرد أنه أكل قبل ذلك في مكان آخر "[2] . أيضا بقي المورسكيون يؤدون ركن الحج رغم الأخطاروالصعاب التي كانوا يتعرضون لها .و كانوا ينظرون إلى من يؤدي فريضة الحج بشيء من الاحترام و التبجيل . فهذا بويزمنسون (puez monsoon) قد كتب قصيدة شعرية طويلة ، و هذه بعض أبياتها

لقد سافرت بفرح
بعيدا عن أهلي
للإنتقال إلى أرض العرب
لإكمال فريضة الحج
وهي تغسل كل آثام
من يقوم بهذه الرحلة [3]

---

[1] المرجع نفسه ، ص ١٨٩ .

[2] ، المرجع نفسه ، ص ١٩١ ، و أنظر لوي كارديك ، المورسكيون الأندلسيون و المسيحيون ، ص٢٥ .

[3] جمال يحياوي ، المصدر السابق ، ص١٨٩ .

أيضا حافظ المورسكيون على أهم الأعياد الدينية ، و هي عيد الفطر و عيد الأضحى و عاشوراء . فكانوا يجتمعون في أماكن سرية " ليغنوا و يرقصوا و يأكلوا ما طاب لهم و اشتهوه من المآكل "[1] . و يلعنوا المسيحيين و محاكم التفتيش ، و يسخروا من المعتقدات المسيحية ، و يوصون بعضهم البعض بالتمسك بالإسلام .

و هكذا ، بقي مئات الآلاف من المورسكيين ، يمارسون الشعائر الإسلامية سرا.مما جعل الكنيسة تيأس من تنصيرهم حتى في المناطق التي كانت تحتوي على نسبة ضئيلة من المورسكيين ، كطليطلة مثلا ، إذ "بقوا جميعا مسلمين في أعماقهم ، و إن مسيحيتهم ليست سوى شكلية " .[2] أما المناطق التي تحتوي نسبة كبيرة من المورسكيين ، فقد بقوا مسلمين ظاهرا و باطنا . و يجاهرون بذلك و يصرحون أنهم مستعدون للدفاع عن دينهم إلى آخر قطرة من دمائهم ، و يفتخرون على المسيحيين بأن دينهم أفضل الأديان .

و إذا انتقلنا إلى البرتغال ، فإننا لا نجدها أحسن حالا من إسبانيا . فقد حرم على المورسكيين ممارسة أي شعيرة إسلامية . بل كان مجرد التصرف على طريقة المورسكيين " يعتبر من لدن المحققين هرطقة تهدد العقيدة المسيحية "[3]. و كان لا يكتفي من المرتد أن يظهر مسيحيته ، و يتخلى عن ثقافته الإسلامية ، بل يجب عليه " الاختلاط بالمسيحيين الأقحاح ، و الابتعاد عن المورسكيين "[4] . لأن هذا يمثل أدلّ برهان على الردة .

---

[1] لوي كارديك ، المورسكيون الأندلسيون المسيحيون ، ص ٣٤ - ٣٥ .

[2] المرجع نفسه ، ص ٩٧ .

[3] أحمد بوشرب ، مغاربة البرتغال ، ص ٢١٠ .

[4] أحمد بوشرب، مغاربة البرتغال ، ص ١٢٠.

و كانوا يجبرون المسيحيين على الإبلاغ عن المورسكيين في حالة قيامهم بأي قول أو فعل يخالف النموذج السائد في البرتغال . و لكن المورسكيين استمروا " رغم تنصرهم في القيام سريا ببعض الفرائض كالصلاة و الصوم ، و قول الشهادة و الاستغاثة بالله بالنبي و بالأولياء " [1] . و كانوا يوجهون النقد اللاذع إلى المعتقدات المسيحية ، و في المقابل يؤكدون على أفضلية الإسلام على سائر الأديان .

و في الختام ، نقول إن محاكم التفتيش قد لعبت دورا بارزا في تصفية الإسلام و شعائره في البرتغال و في إسبانيا . و لو لا وجودها لظل الإسلام منتشرا فيهما بقوة .و الرسالة التي بعثها المورسكيون إلى بايزيد الثاني ، وهي على شكل قصيدة توضح لنا بصفة عامة المعاناة التي مروا بها أثناء الحكم الإسباني بسبب تشبثهم بالروح الإسلامية .

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم　　بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخانا عهودا كان قد غررنا بها　　و نصرنا كرها بعنف و سطوة
وكل كتاب كان في أمر ديننا　　ففي النار ألقوه بهزء و حقرة
و لم يتركوا فيها كتابا لمسلم　　ولا مصحفا يخلو به للقرأة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم　　يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه و يأخذ ماله　　ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا　　بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ولا　　ندكرونه في رخاء و شدة
وقد سمعوا قوما يغنون باسمه　　فأدركتهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولا تهم　　بضرب و تغريم و سجن وذلة

[1] المورسكيون في البرتغال ، أحمد بوشرب ، المجلة التاريخية المغربية ، ع٢٥ – ٢٦ . ص ٤٥ .

وقد بدلت أسماؤنا و تحولت بغير رضا منا و غير إرادة [1]

وفي الختام نقول ، أن محاكم التفتيش قد لعبت دورا بارزا في تصفية الإسلام و شعائره في البرتغال وفي إسبانيا . ولولا وجودها لظل الإسلام منتشرا فيهما بقوة .

نستخلص مما سبق ما يلي :

١- الفتح الإسلامي لإسبانيا ، أنقذها من القرون الوسطى المظلمة التي مرت بها أوروبا. كما أنه خلص الشعب الإسباني من ظلم و جور القوط (Elgoth) .

٢- معاملة المسلمين الفاتحين لأهل الذمة ؛ كانت معاملة إنسانية لا نظير لها.

٣- سقوط الأندلس ، انجرت عنه مآس و أحزان للموريسكيين و اليهود دامت مدة زمنية طويلة ؛ بسبب الاضطهاد الذي سلط عليهم .

٤- محاكم التفتيش هي محاكم دينية كنسية في الحقيقة ؛ لأنها هي السبب في وجودها و استمرارها.

٥- الأساليب التي طبقتها محاكم التفتيش على الموريسكيين ، تعتبر من أبشع الأساليب التي عرفها التاريخ .

٦- يعتبر رجال الدين المسيحيين ،من مجرمي الحرب .بسبب الجرائم و المجازر التي ارتكبوها ضد الموريسكيين ، و هذا بشهادة كبار مؤرخي الغرب .

[1] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ،ج٥/٣٤٦-٣٤٧

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

نتائج الاضطهاد

المبحث الأول : طرد الموريسكيين

لقد كانت عملية طرد الموريسكيين هي آخر إجراء اتخذته السلطة الملكية ، بوحي من السلطة الروحية . بعد أن أعلنت فشلها في تحويل الموريسكي المسلم إلى مسيحي ؛ وهذا راجع إلى صلابة إيمانه ،و إصراره الكبير على التشبث به .

وكانت فكرة الطرد تراود أذهان الملوك الكاثوليك منذ زمن بعيد ولكن" طرد مئات الألوف أو الملايين من العرب ، الذين بقوا في أراضيهم لم يكن بالأمر السهل على المماليك الإسبانية في ذلك الحين . لأسباب كثيرة منها كثرة عدد العرب والخوف من ثوارتهم وتمردهم على الأوامر . مما كان يمكن أن يهدد أمن وسلامة المملكة بأفدح الأخطار "[1] .ضف إلى ذلك تشبث النبلاء الأسبانيين بالعنصر الموريسكي ، وإصراره على بقائه في إسبانيا .وكانوا يقولون أنه من عنده عرب عنده ذهب .

وذلك راجع إلى النشاط والمهارة والزهد الذي كان يميز الموريسكيين عن غيرهم . وقد كانوا ضد فكرة طردهم ، أو التعرض لهم بأي أذى . بل الأكثر من ذلك أنهم كانوا يدافعون عنهم و يحمونهم من بطش محاكم التفتيش ، مثلما حدث في مملكة أراغون (Aragon) حيث ألزموا السلطة الملكية هنالك على احترام الموريسكيين ، و السماح لهم بممارسة عاداتهم و تقاليدهم . فأغضب ذلك الكنيسة و اعتبرتهم هم العدو الحقيقي الذي يقف ضد طموحاتهم؛ ففرضت عليهم غرامات مالية كبيرة كعقاب لهم .

---

[1] أسعد حومد ، محنة العرب ، ص ٢٥٩

و لكن حين تولى الملك فيليب الثالث (PhilipeIII) سنة ١٥٩٨م عرش إسبانيا ، أدرك أن الوسائل التي طبقها ملوك إسبانيا قبله فشلت كلها . حيث لم يستطيعوا أن ينصروا إلا فئة قليلة . أما الغالبية منهم فقد بقيت متمسكة بالإسلام و إن أظهرت المسيحية .

فقرر نهائيا طرد المورسكيين من إسبانيا ، و تحقيق الوحدة الدينية التي كان يحلم بها رجال الدين . و هذا بعد أن استشارهم و على رأسهم الكاردينال جاسبارا دو كوردوبا(Gasparde cordoba) ، و الذي أقنع الملك بصواب قراره و أنه يمثل الحل الأنجع لهذه المسألة . و أقنعه أيضا أن أساليب القوة و الإرهاب لم تنفع مع المورسكيين بل زادتهم إصرارا و تمسكا بالإسلام . فعقد الملك لذلك اجتماعات سرية مكثفة حضرها رجال الدين و النبلاء و المقربون منه . حيث درسوا الأمر من كل النواحي السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . و اتفقوا في النهاية بالإجماع على طرد المورسكيين ، و على أن يبقى هذا الأمر في طي الكتمان- حتى قيل أن البابا لم يخبر بذلك أحدا- ، خوفا من أي ثورة مورسكية محتملة ، و خوفا أيضا من رفض النبلاء و الأشراف لهذا القرار لأنه يضر بمصالحهم الشخصية . و اختاروا عام ١٦٠٩ م كعام مناسب لطرد المورسكيين " نظرا للإضطرابات الخطيرة بين زعماء العالم الإسلامي و انشغالهم بهذه الخلافات عن كل شيء آخر . فسلطان الترك كان مشغولا في صراع مع ملك فارس ، و مع صراع آخر مع ملوك مراكش . و ملك مراكش مشغولا بثورة مولاي زيدان . بالإضافة إلى انشغاله في صراعه مع سلطان الجزائر التركية "[1] .

[1] أسعد حومد ، المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

و لكي ينجز هذا العمل الضخم بسرعة ، حشد الملك فيليب الثالث (PhilipeIII) ، كل قواته و جيشه لإجلاء المورسكيين في مدة زمنية قصيرة . فجهز ثلاثة عشر ألف جندي ، و زاد في تحصين القلاع و الحصون ، و زودها بالحاجيات والمؤن الضرورية ، و جلب جميع السفن الموجودة في إيطاليا و إسبانيا ، كما استعان بالسفن التجارية . و أوكلت مهمة الإشراف على التهجير إلى القائد أغوسينين دي ميخا (Augestin de meja) و مهمة الحراسة البحرية إلى بيد رودي طرليدو(pedrodetoledo) ، و مهمة تأمين الطريق البحري إلى سيمون دي أنثيرا) (simoén de ancer و لويس فارخارد (luis faryardo) . كما عينت السلطة الإسبانية بعض الجنود مهمتهم قيادة المورسكيين إلى الموانئ المخصصة لهم و هذا تجنبا لأي طارئ قد يحدث .

و هكذا اتخذت جميع الإجراءات القانونية و الاحتياطيات الأمنية لترحيل المورسكيين و أصبحت العملية في طور الإنفاذ ، و لا تنتظر إلا قرار الملك . وكانت بلنسية هي المدينة الأولى التي تمت بها أول عملية لترحيل المورسكيين . ويصف لنا عبد الله حمادي الجو العام قبل أيام قلائل من الترحيل فيقول : " فتحولت بلنسية لكل هذه الحشود الهائلة من الرجال والعتاد والحركة الدائمة ، إلى جو يوحي بإنذار خطير اندهش له العامة من مسيحيين وموريسكيين ، لأن الإعلان عن الغاية من هذا التجمع لم يتمّ بعد " [1].ففي ٢٢ أيلول ١٦٠٩م أذيع الخبر بشكل رسمي ؛ فوقع ذلك صدمة على المورسكيين ، ولقي استجابة متفاوتة بينهم فمنهم من حزن لهذا الأمر و لم يطق سماعه ، لأنه يقضي بترحيلهم من أرض آبائهم وأجدادهم .

[1] المورسكيون ومحاكم التفتيش ، ص٥٩ .

وأما بقية المورسكيين فقد فرحوا بهذا القرار ورحبوا به واعتبروه قرارا صائبا ، وقد ظلوا ينتظرونه عشرات السنين . لأنهم سئموا العيش تحت الحكم الإسباني الغاشم . فكان من ذلك أن تسارعوا إلى الإستعداد للرحيل ، والإلتحاق بإخوانهم المسلمين في العالم الإسلامي . فهنالك فقط يستطيعون أن يمارسوا الشعائر الإسلامية بكل حرية .

وأما الكنيسة فكان رد فعلها ، أن أقامت الإحتفالات في جميع أرجاء إسبانيا ، ودقت أجراس الكنائس ، وأقيمت الصلوات شكرا لله على هذه النعمة . واعتبرت هذا اليوم عيدا دينيا ووطنيا . وقامت "بإذكاء روح الحماسة في القسيسين ، وحثهم على تقديم أكبر عون لإنجاح المهمة " [1] .

كما كان رد فعل الشعب الإسباني مثل رد الكنيسة على حد السواء ، وذلك لأنهم كانوا ينظرون إلى المورسكيين إلى أنهم هم السبب في بؤسهم وشقائهم

أما النبلاء والأغنياء فإنهم"ما انفكوا يعبرون عن استيائهم من هذا القانون لأن مصالحهم أصبحت في خطر شديد ، ولهذا توجهوا إلى الملك يشرحون له الأضرار التي تحل بالمملكة من جراء تنفيذ قرار الطرد"[2]. ولكن الملك رفض طلبهم ولم يستجب لشكواهم . ولكي يسترضيهم ولا يثير سخطهم أصدر مرسوما ملكيا في صالحهم ، يخول لهم الحق في الاستيلاء على ممتلكات المورسكيين ، مما جعلهم يرضون بهذا القرار . ولكن بعض النبلاء المتدينين ، قد أبدوا " منذ البداية الأولى رضاهم وتشجيعهم لقرار الملك ، حتى ولو كان يضر بمصالحهم تغذوهم في ذلك

---

[1] أسعد حومد ، محنة العرب ، ص٢٦٩.

[2] المرجع نفسه ، ص٢٦٧.

نزعة دينية . مثل دوغديا الذي يملك أربع مناطق يبلغ سكانها من العرب من أتباعه ستين ألفا ، ومع ذلك قرر التضحية بمصالحه الخاصة "[1].

وبهذه السياسة استطاع الملك أن يسترضي جميع طبقات المجتمع الإسباني ، وأعلن قراره المشؤوم سنة ١٦٠٩م والقاضي بترحيل المورسكيين واشترط على المشرفين على هذه العملية ألا يتجاوزوا ثلاثة أيام . كما اشترط على المورسكيين ألا تتجاوز حمولتهم حمولة اليد . وهذا حتى يسهل نقل أكبر عدد ممكن منهم . مما أدى بهم إلى بيع ممتلكاتهم في الأسواق بأزهد الأثمان ، فانخفضت الأسعار بنسبة ٩٠% . فاضطر الملك إلى إصدار أمر ملكي آخر في ٠١-١٠-١٦٠٩م" يمنع المورسكي من حرية حمل نصف ممتلكاته من المتاع ، وذلك لامتصاص الفيضان الذي أغدق الأسواق وتسبب في كساد أنواع تجارية أخرى " [2].

وفي هذه السنة بدأت أول عملية في الترحيل كما ذكرنا ، ففي صباح ذلك اليوم جمع الشيوخ والرجال والنساء والأطفال والأغنياء والفقراء والعلماء والعوام في ساحة عمومية ، ثم اقتيدوا كالأنعام إلى السفن أفواجا أفواجا ، إلى مصير مجهول لا يدرون نهايته ولا عاقبته . وهم يقسمون بأغلظ الإيمان على العودة والانتقام من الإسبان . وقد دامت الرحلة الأولى خمسة أيام كانت مدينة وهران هي المحطة الأولى للمورسكيين .

والذي يلاحظ على هذه الرحلة أن الإسبان لم يتعرضوا لهم بأي نوع من أنواع الإهانة أو التعذيب . ولم يحدث أي صدام بينهم ، بل كانت في غاية الصرامة في التنظيم والتنفيذ.

---

[1] المصدر السابق ، ص٢٧٠.

[2] عبد الله حمادي ، المورسكيون ومحاكم التفتيش ، ص٦٣.

ونظرا للعدد الهائل من المورسكيين المهجرين ، واللذين يعـــدون بمئـــات الآلاف ، طلبت الحكومة الإسبانية من السفن التجارية إعانتها علـــى الترحيـــل . وهذه السفن كانت في الغالب سفنا للقراصنة . وقد أساؤوا معاملة المورســـكيين كما ينقل لنا ذلك المؤرخ الإسباني دومنيقيت أورتين (Dominguez ortiz) إذ يقول "... وأما اللذين ركبوا السفن التجارية الخواص ، فقد لاقوا من ســـوء المعاملـــة الكثير ، مع سوء نية ربانها "[1].

وقد دامت هجرة المورسكيين عن طريق البحر زمنا طويلا .حيث ساهمت البحرية العثمانية الجزائرية في إنقاذ المورسكيين من ظلم محاكم التفتيش ، فهجرت عشرات الآلاف منهم إلى المغرب العربي ، فخير الدين بربروس وحده أنقذ سبعين ألف مورسكي . كما أنها ساهمت في محاربة القراصـــنة الـــذين قـــاموا بنـــهب المورسكيين المهجرين .

ولم تقتصر هجرة المورسكيين على الطرق البحرية فقط ،بل قـــد هـــاجر الكثير منهم عن طريق البر ، مصطحبين بقوات من الجيش الإسباني لأجل حمايتهم من أي اعتداء محتمل . ولكن في الحقيقة لم تقدم لهم أي حماية أمنيـــة تـــذكر ، إذ كانوا يتعرضون إلى مهاجمة قطاع الطرق فيقتلون الكثير منهم ويسلبون أمـــوالهم على مرأى و مسمع من الجيش الإسباني . فزاد هذا مـــن معانـــاة المورســـكيين ،فانهارت معنوياتهم النفسية كثيرا ، ومات الكثير منهم بسبب الأمراض الفتاكـــة . يقول المؤرخ المقرئ عن هذه المعاناة والمأساة: " ... إلى أن كان إخراج النصارى إياهم (أي العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرج ألوف بفاس ، وألوف أخرى بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خـــرج بتـــونس

[1] نقلا عن عبد الله حمادي ، المصدر السابق ،ص٦٦.

فتسلط عليهم الأعراب ، ومن لا يخشى الله تعالىفي الطرقات ، ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة "[1]

ويقول أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي "... واتفق الكثير من المسلمين الأندلسيين عند خروجهم ، أن نهبهم في البحر النصارى ، وأكثرهم الفرنج البحرية اللذين أكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين ، وخانهم كل واحد من الرياس في سفينته "[2].أما عن طرد المورسكيين من المناطق الإسبانية الأخرى فإنها لم تختلف عن الطريقة الأولى في الكيفية والأسلوب في شيء.

ففي قشتالة تقدر الروايات أن عدد الذين أخرجوا منها وحدها فقط إلى غاية صدور قانون ١٦١٠ م مئة ألف مورسكي .

أما في أراغون (Aragon) فقد أصدر في سنة نيسان ١٦١٠م أمر بطرد المورسكيين المقيمين في المملكة ، وقد كان النبلاء هم أول الرافضين لذلك فتقدموا إلى الملك بلائحة يرجونه فيها إلغاء هذا الأمر ، ولكن لاقت محاولاتهم هذه آدانا صماء . ولكن المورسكيين كانوا مستعدين للسفر ، بعد أن شاهدوا ما حدث لإخوانهم في العقيدة في المدن الأخرى . وقد سمح لهم الملك بحمل ما يستطيعون حمله . وعين لهم أقستين ميخا (Augustin Meja) رئيسا لهم.

فخرج من أراغون حوالي أربعة وستون ألف مورسكي ، اتجه معظمهم إلى المناطق المغربية.

---

[1] نفح الطيب ، ج٥ ، ص٥٢٨.

[2] ناصر الدين على القوم الكافرين ، تحقيق : محمد رزوق ، (ط١ ؛ الدار البيضاء : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،١٤٠٧ – ١٩٨٧م) ،ص١٧.

أما سرقسطة ففي ٢٩ أيار ١٦١٠م " أذاع المركيز ودي ايتونا أمـــرا ... يقضي بإخراج جميع عرب المنطقة ، فخرج منهم بناء على هـــذا الأمـــر حـــوالي ٢٢ألف من المورسكيين"[١].

أما في غرناطة فقد تأخر نوعا ما القرار بإخراج المورسكيين منها . وفي ٢٢ أدار ١٦١١م ، هاجر آلاف منهم غرناطة يقدرها المؤرخون بمئة ألف شخص .

أما مورسكيو مرسية ، فقد صدر مرسوم في ١٠ كانون الثـــاني ١٦١٠م بطردهم فخرج قرابة ١٥ ألف مورسكي "أما الأطفال الذين تقل أعمارهم عـــن ثمانية سنوات فقد تركوا في البلاد

وسلموا للمسيحيين لتنشئتهم "[٢] على العقيدة المسيحية.

ثم توالت الهجرات ، واستمرت السفن تقذف بالمورســـكيين في المـــوانئ المغربية خاصة .

وفضل البعض الهجرة إلى فرنسا والبعض الآخر فضل الدولة العثمانية والتي أحسنت ضيافتهم . ولم يبقى في إسبانيا في نهاية القرن السابع عشر إلا أعداد قليلة جدا ، انصهرت بمرور

الوقت في المجتمع الإسباني .

وبهذه الطريقة البشعة زال الإسلام من إسبانيا و أصبحت مسيحية مئةبالمئة و "وانطوى انطواءا العلم العربي علم الإسلام ، الذي دخل الفاتحون العرب تحـــت ظله إلى الأندلس "[٣]. وتحقق بذلك حلم الملكة إيزابال (Isabell) في أن توحـــدت

---

[1] أسعد حومد، محنة العرب ، ص٢٧٢.

[2] نفس المكان

[3] ، اسعد حومد ، المصدر السابق ، ص٢٧٣.

إسبانيا عقديا تحت راية العقيدة الكاثوليكية ، ولكنهم لا يعلمون أنهم خربوا بيوتهم بأيديهم ، وذلك للنتائج الوخيمة التي حلت بإسبانيا بعد الطرد .

المبحث الثاني: نتائج طرد المورسكيين

المطلب الأول: النتائج الاقتصادية والثقافية

بمجرد أن بدأت المدن الأندلسية تسقط الواحدة تلوى الأخرى في أيدي الجيش الإسباني، كانت في نفس الوقت تنحط عمرانيا واقتصاديا وحضاريا . ولنأخذ مثالا على ذلك مدينة إشبيلية – وكانت من القلاع الأولى التي سقطت في أيدي النصارى يوم ٢٣ ديسمبر ١٢٤٨م – فصارت " إشبيلية التي كانت تحتوي على ١٦٠٠حرفة كافية لإعانة ١٣٠ألف شخص لا تشتمل إلا على ٣٠٠حرفة ، وهذا فضلا عن خلوها من ثلاثة أرباع سكانها "[1].

ولم تكن مدينة اشبيلية هي المدينة الوحيدة التي عم فيها التخلف والانحطاط ، بل قد شمل ذلك كل مدينة أو قرية حل فيها الإسبان . في حين كانت المدن الجنوبية في قمة التطور والإزدهار .

ولكن الطامة الكبرى التي حلت بإسبانيا هي يوم أن أقدمت على طرد مئات الآلاف من المورسكيين ، فجنت من ذلك خسارة عظيمة ونتائج وخيمة في جميع المجالات .

ونحن سوف نقتصر في تبيين هذه النتائج السلبية على بعض المدن الكبرى فقط . ولنبدأ بمدينة طليطلة عاصمة القوط ، والتي كانت أيام الحكم الإسلامي من

[1] غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص٨٤.

أكثر المدن تقدما وازدهارا في أوروبا ، ولكن حينما حل فيها الإسبان عمّ فيها الخراب ، فلم يبق فيها إلا ثلاثة عشرة مصنعا للصوف بعد أن كانت تضم خمسين مصنعا يعيش منها أربعون ألف شخص .

أما مدينة قرطبة التي سحرت كتاب الغرب بجمالها وعلومها والتي كانت تحتوي على آلاف القرى ، بل إن المؤرخين يقولون أن ضاحية من ضواحيها الثمانية والعشرين أكبر من أي مدينة أوروبية كبيرة . كما أنها كانت تحتوي ١١٣ألف منزل ، ٦٠٠ مسجد ،و٣٠٠حمام ، و٨٠ مدرسة ، و١٧ مدرسة عليا ، و٢٠ مكتبة عامة. أصبحت مجرد،"قرية حقيرة " [1] ينعدم فيها النشاط الإقتصادي والتبادل التجاري والتنافس العلمي ، وتكاد تكون خالية من السكان ، سوى بعض الكسالى من الإسبان يجوبون الأزقة والشوارع . وباختصار كان منظرها " منظرا محزنا" .[2]

وبعد أن طرد المورسكيين ، كانت أول مشكلة واجهتها السلطة الحاكمة ، أنها لم تجد من يسد الثغرة التي خلفها رحيلهم فاضطرت "إلى تسليم سلطتها العليا وشؤونها الإدارية ، وصناعاتها وتجاراتها إلى رؤساء من الأجانب ،كالفرنسيين والطلاينة والألمان الخ". [3] لأن الاقتصاد الإسباني كان يعتمد عليهم اعتمادا كليا ، لأنهم أصحاب مهارة ونشاط وإخلاص ، وبطردهم "إنحط الإنتاج الزراعي الذي برع المورسكيون فيه ، وخربت الديار الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة ، وكسدت التجارة التي كان المورسكيون من أنشط عناصرها ، وعف الكثير من الصناعات

---

[1] جوزيف ماك كيب ،مدينة المسلمين في إسبانيا ،ص١٠٣

[2] جوزيف ماك كيب ، المصدر نفسه ، ص٦٣.

[3] غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص٥٨٣.

التالدة التي كانوا أساتذتها "[1]. وحقيقة فإن وضع الزراعة بعد رحيل المورسكيين يعد وضعا مأساويا فقد "جمد النشاط الزراعي، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفرت كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ". [2]ولم يتمكن النبلاء وملاك الأراضي من تعميرها وزراعتها مرة أخرى ، رغم المساحات الشاسعة التي استولوا عليها .

أما الصناعة والتي كان " العلماء وأرباب الصناعات والتجار من العرب وحدهم ، لا من الإسبان الذين كانوا ينظرون إلى كل مهنة شزرا " [3].فقد انحطت انحطاطا لا نظير له فاختفت بعض الصناعات التي اشتهرت أيام العرب ، وركد بعضها الأخرى . ولم تعد تجلب لخزينة الدولة أي شيء .وكانت الدولة تستورد معظم الصناعات الثقيلة والخفيفة من البلدان الأخرى . أما من الناحية العلمية فقد "أجمع كتاب العصر الذين زاروا إسبانيا على الاعتراف بضعف المستوى الثقافي للإسبان . وكان هذا الضعف عميقا عاما في أواخر القرن السابع عشر من الميلاد . وبدت تلك البلاد التي أضاءت العالم أيام سلطان العرب ، خالية من أية مدرسة لتعليم الفيزياء أوالرياضيات أوالطبيعيات . وصرت لا ترى فيها كلها حتى سنة ١٧٧٦م كيماويا قادرا على صنع أبسط التراكيب الكيماوية ولا شخصا قادرا

---

[1] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ص٤١٢.

[2] نفس المكان.ويقول ول وايل ديورانت "... واضمحلت الزراعة بتحويل المزيد من الأرض إلى مراعي للأغنام لإنتاج الصوف ". قصة الحضارة (٢٩/٢٣).

[3] [3] غوستاف لوبون : حضارة العرب ص٥٨٣.

على إنشاء مركب أو سفينة شراعية ".[1] بل إن علماء الإسبان كانوا يجهلون عن الدورة الدموية جهلا تاما .

و أصبح الجهل والأمية في إسبانيا شيئا عاديا ومن النادر أن تجد من يعرف القراءة والكتابة ، وكانت العلوم الطبيعية والفيزيائية شيئا غير محبب لدى الإسبان حيث كانت تنظر الكنيسة إلي هذه العلوم نظرة احتقار .

كما كان من نتائج الطرد أن زالت ومحيت قرى ومدن بأكملها من الوجود ، ولم يبق منها إلا الأطلال . وأصبح مجمل سكان إسبانيا لا يتجاوز ستة ملايين نسمة في حين " كان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة وحدها سبعة ملايين "[2]. وطليطلة التي كان يعيش فيها ٢٠٠ ألف نسمة ، أصبح لايتعدى سكانها ٣٠ ألف نسمة "من الكسالى يدبون دبيبا في شوارعها المهجورة الهامدة "[3].

كما أن الكنائس ومحاكم التفتيش تعرضت لأزمات مالية وإفلاس تام وشلل كلي؛ لأنهم كانوا يعيشون على نهب أموال المورسكيين ومصادرة أملاكهم الخاصة ، يقول لوي كارديالك (Louis Cardialc) "...وقد تبين لنا بسهولة كيف أن دواوين محاكم التفتيش كانت تعيش في جزء كبير من نفقاتها من المورسكيين "[4]. فاضطروا في نهاية الأمر إلى بيع الأراضي الشاسعة التي كانت تحت حوزتهم . وخلاصة القول أن إسبانيا تضررت تضررا بالغا من هجرة المورسكيين ، وقد

---

[1] غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص٥٨٣.

[2] عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ص٤١٢.

[3] جوزيف ماك كيب ، مدينة المسلمين في الأندلس ، ص٦٣.

[4] المورسكيون الأندلوسيون والمسيحيون ص١١١.

تأسف الكثير من المؤرخين لذلك . واعتبروا ذلك كارثةحلت بإسبانيا وأوروبا معا.

يقول جوزيف ماك كيب(JOSEPH MACK KEEP) :"...ولكن الإسبان لم يدركوا أنهم,قتلوا الإوزة التي تبيض بيضة من ذهب لك يوم ..."[1].

وتقول زيغريد هونكه :" وما إن إنحسرت تلك الموجة الحضارية عن إسبانيا ، حتىهوت تلك البلاد في سكون مميت وفقر مدقع "[2].

ويقول توماس أرنولد(Thomas arnold):" و لم تكن عملية تصفية اليهود وإخراجهم في إسبانيا أمرا مكروها في عيون المسيحيين الأولين ، ولكن طرد المورسكيين (وهم الإسبان المسلمون الذين تنصروالعدة أسباب) لم يكن له الواقع الحسن في نفوس غالبية السكان المسيحيين . إذ وجدتا البلاد نفسها في مستفتح القرن السابع عشر مجردة تماما من جميع صناعها الماهرين ، وبضع مئين الألوف من المزارعين . لهذا السبب صار الإنهيار الإسباني أمرا محتوما " [3].

المطلب الثاني : انحسار الإسلام عن الأندلس

لقد دام الإسلام قرونا طويلة في الأندلس حيث ساد فيها التسامح وحسن المعاملة مع المسيحيين . وأصبح المسيحي آمنا على ماله ومتاعه ومعتقده . و لم يتعرض المسلمون لأهل الذمة بسوء . بل كانوا يفضلون العيش في البلاد الإسلامية

---

1 مدينة المسلمين في إسبانيا ص٦٣.

2 شمس العرب ص٤٧٥.

3 تراث الإسلام ، ترجمة ، جرجس فتح الله ، (ط٣ ؛ بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٨م) ، ص٢٠. وانظر أيضا ول وايرل ديورانت ، قصة الحضارة (٨٠/٢٣)

على البلاد المسيحية . ولهذا أعتنق الكثير منهم الإسلام طواعية . وامتزجوا بالمسلمين امتزاجا كليا

ولكن بعد سقوط غرناطة ، زال ذلك التسامح الذي عرف أيام المسلمين ، وحل محله التعصب والاضطهاد . فلم يستطيع رجال العقيدة المسيحية أن يروا إسبانيا متعددة الأديان والثقافات .فأوجدوا محاكم التفتيش الرهيبة لقلع العقيدة الإسلامية منها وسعت لتنصير أتباعها بالطرق الترغيبية والترهيبية . ودام هذا أزيد من قرن ، كللت بالنجاح وأصبحت إسبانيا لا تدين إلا بالكاثوليكية كعقيدة رسمية وشعبية ، إذ لم يبق بعد سنة ١٦٠٩م إلا إعداد صغيرة جدا تعد على الأصابع ،انصهرت وذابت بمرور الوقت .

والزائر لإسبانيا اليوم ، يتعجب كيف أن الملايين من المسلمين من الذين كانوا يسكنون في الأندلس ، قد أبيدوا كلية ولم يبق فيهم ولو مسلم واحد ، بل حتى لا يوجد قبر يدل على أنه قبر مسلم .

ألا يدلنا ذلك ، على أن الإنسانية لم تعرف طوال تاريخها إبادة كالتي عرفتها الأندلس. وقد دار حوار بين أحد وزراء الدولة العثمانية وأحد رجال الدين المسيحي حول التعصب في الإسلام و المسيحية ، فأثبت له الوزير بالأدلة الواقعية على سماحة الإسلام إذ قال له"إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرس وغيرهم ، مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا درجة استئصال شأفة أعدائنا ، ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر الشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلا ... فبقي بين أظهرنا حتى في أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس ، وكلهم كانوا وافرين لهم

ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين "[1]. ثم وجه الكلام إلى رجل الدين المسيحي قائلا له " أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد ، واشترطتم عليه إذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر . ولقد كان في إسبانيا ملايين من المسلمين ، وكان في جنة فرنسة وفي شمال إيطالية وفي جنوبها مئات الألوف منهم ، ولبثوا فيها تلك الأوطان أعصر مديدة . ومازلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام "[2].

المطلب الثالث : توتر العلاقة بين المسلمين والمسيحيين

تتسم العلاقات الإسلامية المسيحية منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا[3] بنوع من التوتر والحذر ، يميزها الانغلاق والتحفظ . فلم تعرف فكرة التعاون والانفتاح بين العالم الإسلامي والمسيحي إلا في نطاق محدود جدا ، وزاد هذا الأمر تعقيدا بعد أن حدث بينهما صدامات عسكرية خلال الحروب الصليبية ، ثم زاد الأمر سوءا عند سقوط القسطنطنية في أيدي المسلمين سنة ١٤٥٣م ، وظهور محاكم التفتيش في إسبانيا . فأصبحت اللغة الدبلوماسية مفقودة بين العالمين وغير مفيدة في نفس الوقت وخاصة في القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد . حيث

---

1. لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي (٢/٢١٠)

2. نفس المكان

3. يقول عادل إسماعيل «... هذا هو الوضع القائم اليوم في العلاقات العربية الأوربية في معطياتها الفكرية و السياسية والاقتصادية ، وفي أبعادها التاريخية التي تبقي في نظر المؤرخين و أهل العالم استمرارا للماضي و جزءا متميزا للحاضر ، وهي متشابكة الحلقات مهما بعد عنها الزمن ».آندريه و آخرون ، العرب ،الإسلام و أوربا ، (دط، بيروت : مركز الحريري الثقافي ، ١٩٩٣)ص٢٧.

نشبت معارك كثيرة في مناطق عديدة برا وبحرا ، بين الجيش المسيحي والإسلامي . مثل معركة البينون (Penon) في مدينة الجزائر العاصمة سنة ١٥٢٩م وقد هزم الجيش الإسباني فيها شر هزيمة . والمعارك التي حدثت أيام شارل الخامس (Charel V) في تونس سنة ١٥٣٥م وفي الجزائر سنة ١٥٤١م . كما لا ننسى المناوشات التي حدثت بين الأتراك والإسبان في البحر الأبيض المتوسط طوال أزيد من قرن .

وقد دامت الصراعات العسكرية والمواجهات المباشرة بين العالم الإسلامي والمسيحي مدة طويلة ، تحولت فيما بعد إلى صراعات اقتصادية وثقافية لا تقل خطرا عن الأولى .

وإن المأساة الأندلسية قد زادت في توسيع الفجوة بين العالمين ، فآثارها النفسية لم تمحى من أذهان المسلمين ، بل بقيت محفورة في عقولهم ووجدانهم ، وآثارها تظهر بوضوح وبشكل كبير ، رغم مرور قرون على ذلك . ورغم التبادل الدبلوماسي والتجاري الحاصل بينهما . فالمسلم دائما ينظر إلى إسبانيا أنها هي الموطن الأصلي لآبائه وأجداده ، وأن المسيحيين الإسبان هم الذين طردوهم منها وقضوا على حضارتهم.

المطلب الرابع : اندثار معالم حضارية بزوال حضارة الإسلام عن الأندلس

أجمع العلماء على أن زوال الحكم الإسلامي قد جر إسبانيا إلى أزمات اقتصادية وثقافية كبيرة ، وأنه أيضا قد ساهم في اندثار الحضارة الإسلامية و التي عمرت ثمانية قرون كلها أخذ وعطاء . ومازالت تلك الحضارة تمثل صورة حية في كتابات علماء الغرب ، فكلهم يتأسفون على زوالها ، ويعدون سقوط الأندلس كارثة حقيقية على أوروبا إسبانيا . ليس من الناحية الاقتصادية والعمرانية ، بل

أيضا من الناحية الأخلاقية . لأنها قد علمت الجنس الإسباني الأخلاق الإنسانية ، ولغة التسامح مع المخالفين . كما أنها قللت من وحشيتهم وهمجيتهم .

وبعد خروج المسلمين من الأندلس أشعل رجال الدين النزعة الدينية ضدهم وضد حضارتهم الإسلامية ، فلم يكتفوا بقتل المورسكيين ، بل تعدوا إلى كل أثر أو دليل يدل على أنه من مخلفات الآثار الإسلامية . فسحقوا المعاهد الإسلامية ، وخربوا المدائن الكبيرة ، وأغلقوا الحمامات العامة وحطموها ، وشوهوا القصور والمنازل وأزالوا الزخرفة الإسلامية عليهما ، واستبدلوها بزخرفة رومانية قوطية . وهذا ما يجده الزائر لإسبانيا اليوم بوضوح . فجميع المساجد مثلا التي حولت إلى كنائس تم تشويه الزخرفة الإسلامية منها .

وبهذا قضي على الإنجازات العظيمة التي حققها العرب في الأندلس ، وما بقي منها و لم تمحى إلى الآن ، شاهدة على عظمة الحضارة الإسلامية .

المبحث الثالث : فقدان العالم للنموذج الإسلامي في فترة الاضطهاد

المطلب الأول : موقف الإسلام من المسيحية

ينظر الإسلام إلى المسيحية على أنها هي الامتداد الطبيعي للديانة اليهودية . إذ جاءت لنسخ بعض النصوص المحرمة في شريعة موسى –عليه السلام– فعيسى – عليه السلام – أتى إلى بني إسرائيل خاصة ، ودعاهم إلى الالتزام بأوامر التوراة .بعد أن زاغوا وانحرفوا عنها ، وانغمسوا في الشهوات والملذات . والقرآن أشار إلى ذلك على لسان الجن"قالُوا يَا قومنَا إنّا سمِعنَا كِتابًا أُنزلَ مِن بَعدِ مُوسى "[1] قال ابن

[1] الأحقاف : ٣٠.

كثير شارحا هذه الآية "... ولم يذكروا عيسى، لان عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل. وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي –صلى الله عليه وسلم – بقصة نزول جبريل –عليه السلام– أول مرة فقال :بخ بخ ! هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جدعا"[1].

والنصارى كلهم على اختلاف مذاهبهم العقدية ، يعتبرون العهد القديم المصدر الأول للتشريعات ، لافتقار الإنجيل لذلك .

والقرآن الكريم يقص علينا في الكثير من سوره، ما حدث بين النصارى حول طبيعة عيسى –عليه السلام–هل هو إله أم بشر ؟ وقد أدى هذا الاختلاف الكبير بينهم إلى الاقتتال والصدام . انتصرت في نهاية الأمر الطوائف التي تزعم أن عيسى –عليه السلام– هو ابن الله وإله في نفس الوقت .وقد رد عليهم القرآن الكريم بقوله :" لقد كَفرَ الذّينَ قَالُوا إنّ اللهّ هُو المسيحُ ابنُ مريم "[2]ثم بين لهم أن عيسى ما هو إلا بشر كبقية البشر الآخرين ، وانه خلق من خلق الله تعالى لا يستطيع أن يفعل شيئا إلا بإذنه قال: "قُل فَمن يَملكُ منَ اللهِ شَيئًا إن أَرادَ أن يَهلِكَ المسيحَ ابن مريمَ وأُمّه ومَن في الأَرضِ جَميعًا "[3]

---

[1] تفسير القرآن الكريم ، (١٧١٠/٤)

[2] المائدة :١٧

[3] المائدة : ١٧

ويرد القرآن على أهل التثليث فيقول : "لَقَد كَفَرَ الَّذينَ قَالُوا إنَّ اللهَ ثَالثُ ثَلاثةٍ وما من إلهٍ إلاّ إلهٌ واحدٌ "[1]. ثم يذكرهم أن عيسى –عليه السلام– بشر فيقول :"ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خَلت من قبله الرسُلُ وأُمهُ صديقةٌ كانَا ياكُلانِ الطّعامَ أُنظر كَيفَ نُبين لهُم الآياتِ ثُم أنظر أنى يوفَكُون "[2].

ومن خلال هذه الآيات الكريمات ، يتبين لنا أن القرآن يؤكد أن المسيحية قد طرأ عليها تغيير وتبديل وتحريف وزيادة ونقصان . وأن أتباع عيسى –عليه السلام– لم يلتزموا بما وصاهم به . من إرشادات وتعليمات . وهذا أرجعه القرآن إلى عدم رسوخهم في العلم .وأن ضلالهم مرده إلى الجهل ، فسماهم الضالين وهم الذين يعبدون الله على جهل .

ولكن رغم هذا ،فالقرآن يعتبرهم من أسرع الناس استجابة إلى دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– عكس اليهود قال الله تعالى :"لَتجدنّ أَشدَّ النَّاسِ عَداوةً للّذينَ آمَنوا اليَهُودَ والّذينَ أَشركُوا ولَتجدنّ أَقربَهُم مَودَّةً للّذينَ آمنُوا الّذينَ قَالُوا إنَّا نَصارَى ذَلكَ بأنّ منهُم قِسيسينَ ورُهبانًا وأَنهُم لا يَستكبِرُونَ. وإذَا سَمعُوا ما أُنزلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعيُنَهُم تَفيضُ مِنَ الدّمعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقِّ يَقُولونَ ربّنَا آمنَّا فَاكتُبنَا مَعَ الشَاهدينَ. ومَا لنَا لا نُومنُ باللهِ ومَا جَاءَنَا مِنَ الحَقّ ونَطمَعُ أَن يُدخلَنَا ربُّنَا مَعَ القَومِ الصَالحِينَ . فَأَثابَهُمُ اللهُ بمَا قَالُوا جَنات تَجري مِن تَحتهَا الانهَارُ خَالدِينَ فيهَا وذَلكَ جَزَاءُ المُحسنينَ . والّذينَ كَفرُوا وكذّبوا بآياتنَا أُولئكَ أصحابُ الجَحِيمِ"[3] قال ابن كثير معقبا على هذه الآية بقوله:"الذين زعموا أنهم نصارى من

---

[1] المائدة: ٧٣

[2] المائدة : ٧٣

[3] المائدة : ٨٢-٨٦

أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة . وما ذلك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال الله تعالى :" وجَعلنَا فِي قُلوبِ الّذينَ اَتبعوهُ رَأفةً ورَحمةً" وفي كتابهم "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر وليس القتال بمشروع في ملتهم "[1]. وحقيقة فالتاريخ الإسلامي قد شهد على ذلك.إذ كان النصارى أقرب أهل الأديان إلى قلوب المسلمين لما يتميزون به من صدق وإخلاص ، ولهذا منحتهم الحكومات الإسلامية المناصب الإدارية العليا.

المطلب الثاني: حال النصارى تحت الحكم الإسلامي

إن التاريخ الإنساني قد روى لنا أن" الإسلام نظريا وواقعيا دين السلام والتسامح بين الأفراد والشعوب والدول"[2]وأنه هو الذي ألزم حكام وملوك المسلمين على احترام أهل الذمة، وعدم التعرض لهم بسوء لا في شؤونهم الدينية ولا في أمورهم الدنيوية . بل أكثر من ذلك أوجب على الدولة الإسلامية أن تعاملهم بالحسنى ، وتدافع عنهم في كل الإخطار الداخلية والخارجية المحتملة .

والخلاصة "أن أثر الدين كان عاملا إيجابيا في حسن معاملة أهل الذمة ، والتسامح معهم"[3] وبهذا يتبين لنا أن رأي جورج قروم في أنه "كلما كان أثر الدين

---

[1] تفسير القرآن الكريم (٦١٨/٢)

[2] محمد علي متولي ، الإسلام والحضارة الغربية ،(ط١؛ (دم): دار الفلاح، ٢٠٠١ م) ص٩١

[3] حسن الميمي ، أهل الذمة في الحضارة الإسلامية ،(ط١ ؛بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٨ م) ،ص٩٠

في السلطة الزمنية أكبر ، واجهت العلاقات الطائفية فوزا أكبر من المتاعب "[1] ليس على إطلاقه بصحيح. فقد يكون هذا القول صحيحا يصدق على بعض الديانات الوثنية أو السماوية المحرفة ، ولكن لا يمكن بحال من الأحوال أن نعممه ليشمل الدين الإسلامي ، للأدلة التي لا تعد ولا تحصى .ولا أدل على ذلك القصة التي تناقلها المؤرخون من أن السلطان العثماني سليمان القانوني فكر في إخراج المسيحيين واليهود المقيمين تحت سلطته ، فاعترض على ذلك شيخ الإسلام وقال له:"ليس لنا عليهم إلا الجزية[2]".فانصاع سليمان القانوني لهذا و لم يطردهم من دولته ، رغم الخطر الذي قد يشكلوه على الإمبراطورية مستقبلا . وهدا الموقف الرائع هو الذي جعل الطوائف المسيحية تفضل الإقامة في البلاد الإسلامية ، ينقل لنا بارتولد(BARTOLD) عن أحد مؤرخي الأديان الروس أنه قال : "إن الروحانيين يرون عودة ظلم المسلمين خيرا لهم من الحياة في حكم اللاتين"[3] . لأن الإسلام دين يحترم الشخصية والحرية الإنسانية ، وهو يعد أول دين وضع منهجا يكفل حرية الإنسان .

فهذه شواهد تاريخية واقعية أفلا تكفي في إقناع متعصبي مؤرخي الغرب إلى أن عمق التدين ينتج عنه ولا شك التعصب المقيت . ألا تكفيهم الوقائع والمواقف الكثيرة التي سجلها التاريخ الإنساني في حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة . بدءا من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . فقد كان عليه الصلاة والسلام

---

[1] تعدد الأديان وأنظمة الحكم دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة(دط)؛(دب)؛: دار النهار،١٩٩٢ م)،ص ٩٥

[2] لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي (١/٢٠٨).

[3] تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٥٨.

يزورهم أثناء مرضهم ، ويمشي في جنائزهم ، ويتقبل دعواتهم وهدياهم ، ويوصي الصحابة رضي الله عنهم بعدم التعرض لهم بأي أذى ، ومات وهو يوصي بهم خيرا

كما أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد ساروا على سيرة صاحبهم عليه الصلاة والسلام في حسن معاملة أهل الذمة .

فأبو بكر رضي الله عنه خلال خلافته الراشدة ، لم يظلم أو يتعدى على أحد من أهل الذمة ، وكان يوصي جيشه أثناء الفتوحات بعدم قتل الطفل الصغير أو المرأة أو العجوز أو المترهب في الكنيسة المعتزل للقتال .

أما عمر رضي الله عنه ، ففي زمانه كثرت الفتوحات الإسلامية واتسعت رقعة أرض المسلمين ، وانطوى تحت دولته اليهود والنصارى والمجوس وكثير من أتباع الديانات الأخرى . ولكن في كل ذلك لم يسجل التاريخ أن عمر بن الخطاب ظلم أحدا من أهل الذمة. والرسالة التي وجهها إلى البطريق القبطي بنيامين (benyamin) خير دليل على ذلك . إذ يدعوه فيها إلى العودة بأمان وإدارة سياسة طائفته . وعلى إثر هذه الرسالة عاد البطريرك إلى مقره بعد أن ظل متخفيا خلال مدة الحاكم البيزنطي المقوقس ، واستقبله عمرو بن العاص بحفاوة ومنحه صلاحية كاملة في إدارة شؤون طائفته "[1]. ولم يكن التسامح مقصورا على عهد الخلفاء الراشدين فقط . بل " بقي هذا التسامح صفة أصلية ملازمة للمجتمع

[1] حسين العودات ، العرب النصارى عرض تاريخي ، (ط١ ؛ سوريا : الأهالي ، ١٩٩٢م)، ص٥٧.

الإسلامي وللحكم الإسلامي في كل عصر وفي كل مكان ، أي كان الحاكمون وكان المحكومون "[1]

ففي عهد الدولة الأموية و العباسية زاد حظهم أكثر عند الخلفاء والملوك ، وخاصة عندما أصبحوا يتزوجون من أهل الذمة. فمعاوية بن أبي سفيان عين الكثير من عائلة آل سرجون في مناصب عليا "فوالد يوحنا الدمشقي منصور بن سرجون كان وزيرا ، ويوحنا نفسه عين مربيا ليزيد بن معاوية ولغيره من أبناء الخلفاء .وبقي في منصبه حتى خلافة هشام بن عبد الملك حيث إعتزل . وكان يوحنا متعصبا لنصرانيته" [2]و"وكان طبيب معاوية الخاص وشاعر بلاطه مسيحيا"[3] و"عين معاوية طبيبه المسيحي بن آثال عاملا على ولاية حمص "[4].

و"كان شاعر البلاط في عهده الأخطل المشهور؛ الذي كان يدخل على الخليفة الأموي وصليبه على صدره"[5].

و لم يكن تولي المناصب العليا في الدولة الإسلامية مقتصرة في أيام خلفاء بني أمية . بل لقد استمرت طوال الخلافة العباسية و الفاطمية و العثمانية .

فالخليفة المأمون عين عاملا نصرانيا كانت مهمته جمع الخراج . و الخليفة المهدي كان يشرف على ضياعه في البصرة نصراني . و كان أهل الذمة في زمن

---

1 د/يوسف القرضاوي ، الأقليات الدينية والحل الإسلامي ، (ط٣ ؛ بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٩٨م) ، ص٥٥.

2 حسين العودات، العرب النصارى ،ص١٠٦

3 فيليب حتى ، تاريخ العرب (٢٣/٢)

4 4 المرجع نفسه ، (٤٠/٢)

5 5 حسين العودات، العرب النصارى ،ص١٠٦

خلافته قد " قويت شوكتهم "[1]. مما أدى ذلك إلى غضب العلماء و الفقهاء و العامة من الناس . و أما في العصر الفاطمي " فكان من بين القبط الذين كلفوا بوظائف هامة في الدولة الفخر بن سعيد رئيس الحاشية . و الأسد بن الميقات رئيس ديوان الجيش و أبو اليمن بن مكرواه بن زينور "[2].

و أما في الأندلس ، فقد كانت معاملة أهل الذمة ؛ كمعاملة المشارقة المسلمين لهم ؛ فقد منحوا الحرية الدينية و الاقتصادية و السياسية ؛ من جميع الملوك و الأمراء الذين تعاقبوا على حكم الأندلس . بل الأكثر من ذلك جعلوهم من المقربين إليهم ، ومن الذين يستشيرونهم في أمور الدولة و الحياة . كما فسحوا لهم المجال لطلب العلم فظهر منهم كبار العلماء و الفلاسفة .

فكان طبيب و مبعوث عبد الرحمان الثالث ؛ يهودي الديانة اسمه حسداي بن شبروط . و استطاع اسماعيل بن النغريلية و هو يهودي ؛ ان يبلغ منصب الوزارة في ظل الأمير البربري حبوس ، الذي استولى على أمر غرناطة من ١٠٢٦-١٠٣٥ م .

---

[1] شمس الدين عبد الله بن أبي بكر ابن القيم الجوزية ، أحكام على الذمة ، تحقيق : يوسف أحمد البكري و شاكر بن توفيق العاروري ، ط١ ؛ السعودية : دار ابن حزم ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م (٤٦٢/١).

[2] حسين العودات ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ .بل لقد وصل الأمر بالمسيحيين إلى مناقشة ومجادلة المسلمين في الأمور العقدية : أنظر على سبيل المثال مناقشة البطريرك طيموثاوس الأول لأمير المؤمنين المهدي. في كتاب الأب -هـ- بوتمان اليسوعي ، الكنيسة والإسلام في العصر العباسي الأول (دط) ؛ بيروت : دار المشرق ، (دت)

و في زمن عبد الرحمان الناصر، عين ربيع بن زيد " سفيرا لدى ملـــوك أوربا ، و شغلته أسفاره العديدة عن ان يزاول منصبه كأسقف لألبيرة " [1] .

رغم ما قيل وكتب عن همجية و بربرية المرابطين ، فقد كان في جيـــشهم فرقة مسيحية تحت قيادة القائد المسيحي زوبور تايار .[2]

و الشيء العجيب و المثير للعجب في نفس الوقت أننا وجدنا " كثيرا من ظلام الحكام كان يرفق بأهل الذمة رعاية لذمتهم . في حين يقسو على أهل ملتـــه من المسلمين ويحيف عليهم " [3] . أما عن أحوال الكنيسة فقد" أجاز المـــسلمون للكنيسة بأن تكون لها أحباس تنفق منها ، كما سمح لها بأن تقيم شعائرها بما فيها دق الأجراس ، وإظهار الصلبان "[4] و"لم تتدخل الدولة في عقائـــد النـــصارى ولا شعائرهم ، وكان تعيين رجال دينهم من شأنهم وحدهم كذلك عقد المجامع الدينية "[5].

أما عن أوضاع الشعب ، فلم تكن الدولة الإسلامية تظلم أو تتعدى علـــى حق من حقوقهم في زمن الحرب أو السلم ؛ ما لم يثر الشغب أو يهدد الأمن العام ، أو يتعرضوا للدين الإسلامي بسوء . فهنا تتدخل الدولة لإيقاف خطرهم .

---

[1] ابن المقرىء ، نفح الطيب (١٣٨/٢).

[2] أنظر : لوثرب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي (٢١٢/٢).

[3] يوسف القرضاوي ، الأقليات الدينية ، ص ٦٢ .

[4] ذ/ عبـــادة كحيلـــة ، تـــاريخ النـــصارى في الأنـــدلس ، ط١ ؛ (دن) (دب) ، ١٩٩٣م) ص١٤٣؛١٤٤.

[5] [5] ذ/ عبادة كحيلة ، المصدر السابق ، ص١٤٤. ولمزيد من التفصيل عن تولي أهـــل الذمـــة المناصب العليا في البلاد الإسلامية يجب مراجعة كتاب : أحمد أمين ، ظهر الإسلام ،ط٣ ؛ مصر : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ م(٨٣/٣-٨٧)

وخلال قرون عديدة بداية من الخلافة الأموية إلى الخلافة الفاطمية . لم تقع مظالم للنصارى إلافي ثلاث مرّات فقط في زمن عمر بن عبد العزيز(٧٢٠م ،و الخليفة العباسي (٧٠٧م) والخليفة الفاطمى (١٢١م). وقد كانوا هم السبب في ذلك .

وبهذه الأمثلة التاريخية نتحقق من عظمة الإسلام ، وشدة تسامحه مع أهل الذمة . وقد ترجم هذا التسامح إلى أرض الواقع على يد الخلفاء والأمراء الذين تولوا زمام حكم المسلمين . إذ لم يتعرض هؤلاء الحكام لأهل الذمة بسوء ، سوى ما كانوا يأخذون منهم من الجزية أو الخراج . وهي ضريبة محدودة فرضها الإسلام على أهل الذمة ، مقابل حمايتهم من أي اعتداء محتمل . وكانت تسقط عن العاجزين أو القاصرين ، فلا تؤخذ من الصبي ولا من المرأة ، ولا من المجنون ، ولا من الرهبان . كما كانت تؤخذ برضا أهل الذمة ، فلا يحل تكليفهم مالا يقدرون عليه .ولا تعذيبهم على آدائها ، ولا حبسهم ، ولا ضربهم . ولم نجد في التاريخ الإسلامي ، أن أهل الذمة اعترضوا على دفع الجزية ، أو أنهم ثاروا على ذلك . بل العكس من ذلك فقد رضوا بها ، واعتبروها حقا من حقوق الدولة الإسلامية عليهم ، وواجب من واجباتهم اتجاهها . ولا سيما أنهم كانوا أيام الحكم البيزنطي أو الفارسي يدفعون أضعاف ما تأخذ الدولة الإسلامية منهم مع الإساءة إليهم .

أما عن أوضاع أهل الذمة أثناء الحكم العثماني ، فقد كانت أوضاعا حسنة . ولم تكن دولة من الدول في تلك الفترة ، تحسن معاملة الأقليات الدينية ، كما كانت الدولة العثمانية . فقد كانت تحسن معاملتهم ، وتوليهم المناصب العليا . رغم أنها كانت تستطيع أن تطردهم من مملكتها ، إلا أن ذلك لم يحدث . وهذا راجع إلى أن الإسلام قد ساهم في تهذيب الجنس التركي وفي التقليل من بربريته

،وإلى نزع روح الانتقام الذي كان مشتهرا بها . بل الأكثر من ذلك أنها قد حمت الطوائف المسيحية المغضوب عليها من طرف الكنيسة الكاثوليكية في شرق أوروبا.

المطلب الثالث : شهادات علماء الغرب على التسامح الإسلامي

لقد أثار التسامح الإسلامي إعجاب و تقدير مؤرخي و علماء الغرب . و أجمعوا على أن الإسلام هو الذي أوجد قانونا لحماية الأقليات الدينية ، و اعتبرها من الحقوق المقدسة التي لا يجب التعدي عليها . وأكدوا أن هذا يعد من أعظم مزايا و فضائل الحضارة الإسلامية على الحضارات الإنسانية الأخرى .

يقول مونتجومري (MONTGOMORY) عن وضع أهل الذمة عموما " ... و قد كان ما يدفعونه أحيانا أقل مما كانوا يدفعونه في ظل حكامهم السابقين كما أن الدولة الإسلامية كانت تعتبر أمر حمايتهم حماية فعّالة واجبا من أقدس واجباتها . و يمكن القول بوجه عام أن وضع أهل الذمة لم يكن بالوضع السيئ " [1]

ويقول جراهام إي- فوللر(GRAHAM FOLER) ، و إيان أو- ليسر (JAN ULSTER)عن الدولة العثمانية وتسامحها مع رعاياها المسحيين " ... وأكثر من هذا أن العثمانيين أنفسهم اعتمدوا كثيرا على المسيحيين في البلقان وقلدوهم المناصب . إذ عملوا حكاما للإيالات وشغلوا العديد من المناصب »[1]. ثم يقول لقد كانت الدولة العثمانية دولة متعددة الأديان حيث كل مجتمع ديني محلي له حقوقه الخاصة وهيكل الحكم الخاص به " [2] .

---

[1] فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ت : حسين أحمد أمين ، ط١ ، (دن) : مكتبة مدبولي ، ١٩٨٣ م . ص ١٥،١٦.

[2] — الإسلام والغرب ، ص ٤٦ .

[3] — نفس المكان ، ص ٤٦ .

وينقل لنا حافظ عثمان عن لوتر(LETHER)أنه قال : " يقال أنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك "[٣] . وينقل أيضا عن الكردينال بول (paul) أنه قال : " أن

لأتراك لا يلزمون الآخرين دياناتهم. ولهذا كان الذي لا يهاجم ديانتهم أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها وهو آمن " [١] . كما ينقل لنا شكيب أرسلان عن بعض مفكري عصره الفرنسيين

أنهم كانوا يقولون : " إنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحا وشجاعة من أهل المشرق " [٥]

ويقول جوزيف ماك كيب(JOSEPH MACK KEEP) عن يهود ونصارى إسبانيا أثناء الحكم الإسلامي " فقد كان أهل الأديان جميعا يعاملون بالحسنى وكانت على اليهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم وكانوا يتمتعون بحماية حقوقهم " [٦].

ويقول روم لاند (rom land) : " وكان الإسبان قد نعموا في ظل الحكم الإسلامي بمعاملة متسامحة تحررية " [٧] .

ويقول مارسيل بوازار(MARCEL POISARD) "ولقد أظهر التاريخ في الواقع أن الإسلام تسامح في أن يقيم بين ظهرانيه إلى جانب اليهود والنصارى جماعات

---

[٤] – الإسلام والصراعات الدينية ، ص ٢٦١ .

[٥] المرجع نفسه ،ص٢٦١

[٢] – لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي (٢٠٩/٢) .

[٣] – مدينة المسلمين في إسبانيا ، ص ٥٤ .

[٤] – الإسلام والغرب ، ص ١٨٠ .

دينية " .[٨] و يقول أيضا كان الإسلام يملك مؤسسة لحماية الأقليات الموحدة الواقعة تجت إشرافه السياسي التي لم تتعرض عموما لأي إضطهاد خاص " .[١]

وأميركوا كاسترو(AMRICO CASTRO) قد تكلم كثيرا عن التسامح الإسلامي اتجاه اليهود والنصارى فهو مثلا يقول عن واقع الكنيسة أيام الحكم الإسلامي " وقد بقيت الكنيسة الإسبانية دون أن تتعرض لأي اضطهاد " [٢] . وأن أدوار رجال الدين المسيحي بقيت هي نفس الأدوار الذي كانوا يؤدونها أيام الحكم القوطي. فهذا التسامح المطلق من جانب المسلمين "جعلت المعايشة بين الشعبيين والدينيين سهلة لا سيما في القرون الأربعة الأولى من الوجود الإسلامي " [٣] .

ويقول ق —بارتولد(BARTOLD) : " وقد حافظ النصارى في الجملة على معابدهم وبنوا كنائس وأديرة جديدة بدون أن يتعرضوا لمقاومة " [٤] ثم يتكلم عن تعرض بعض النصارى للاضطهاد من بعض الحكام المسلمين ويرجعه " إلى الاضطهادات التي وقعت على المسلمين واليهود في بلاد النصارى في القرون الوسطى " [٥]. ثم يقول : " ومهما يكن من شيء فإن النصارى الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان " [٦]

---

[٥] — إنسانية الإسلام ، ت عفيف دمشقية ط١ ، بيروت ، نشرات الأدبي ١٩٨٠ ص ٢٤٨ .

[6] – المصدر السابق ،ص ٢٥٥ .

[7] – حضارة الإسلام في إسبانيا ترجمة : دا سليمان العطار (ط١ ، القاهرة : الدار الثقافية للنشر ، ٢٠٠٢ ، ص ٤١

[3] – المرجع نفسه ، ص ٢٥

[4] – تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٥٢

[5] – المرجع نفسه، ص ٥٢

[6] – نفس المكان

ويقول غوستاف لوبون(GUSTAVE LEBON) عن التسامح الإسلامي أيام فتح مصر " وكان عمرو بن العاص سمحا رحيما نحو أهل الاسكندرية مع تلك الخسارة التي أصيب بها العرب ولم يقس عليهم ووضع ما يكسب به قلوبهم و أجابهم إلى مطالبهم وأصلح أسدادهم و ترعهم وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم الخاصة "[1].

ويقول عن واقع النصارى في إسبانيا: ".. وكان باب المناصب مفتوحا للنصارى وكان النصارى يستخدمون في الجيش غالبا "[2] ويقول : " وبلغ حلم عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغا كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر إشبلية النصراني الذي عقد في ٧٨٢ م ، مؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في سنة ٨٥٢ م ، وتعد كنائس النصارى كثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على إحترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم " [3] .

ثم يقول عن اليهود : " وكانت إسبانيا العربية بلد أوروبا الوحيد الذي يتمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها فصار عددهم فيه كثيرا جدا " [4]. ويقول ستانلي لان بول (stanlglonpool) : " فامتزج الدينان وعاش الفريقان في خلطة وصداقة وحسن معاملة "[5]

---

1 - حضارة العرب ،ص ٢١٣ .

2 - المرجع نفسه ، ص ٢٧٦.

3 - المرجع نفسه ، ص ٢٧٧.

4 - المصدر السابق ، ص ٣٣٠ ..

5 - قصة العرب في إسبانيا ، ص ٨٧.

ويقول بروكلمان(BROCLMAN) عن فتح عمرو بن العاص لمصر : " أنهم أبقوا جميع الموظفين القدماء في مناصبهم التي ظل الأقباط يشغلونها على العموم في ما بعد أيضا "[1].

و في نهاية هذا الفصل نجمل شيئا من النتائج أهمها :

١- بعد أن يئست الكنيسة من تنصير الموريسكيين ، أمر الملك فيليب الثالث بطردهم نهائيا من إسبانيا ،و التخلص من متاعبهم .

٢- عملية طرد الموريسكيين من إسبانيا ، تمثل مأساة ثانية لهم.بسبب المعاناة النفسية والأمنية التي مروا بها أثناء تهجيرهم .

٣- نتائج الطرد كانت وخيمة لكل من الحضارة الإسلامية والمسيحية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - تاريخ الشعوب الإسلامية ، ت : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ط١ ، دار العلم الملايين ، بيروت : ١٩٤٨م ص ١٠٢.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في نهاية بحثنا هذا أعتقد أنني توصلت إلى عدة نتائج مهمة ؛ تتعلق بالدرجة الأولى بنظرة المسيحية إلى الأديان الأخرى . وأهم هذه النتائج أذكرها فأقول :

١- تعدّ العوامل السياسية والاقتصادية والقومية والدينية ؛ أهم الأسباب في نشأة وظهور الاضطهاد ، وإن كان العامل الديني يحتل المرتبة الأولى من هذه العوامل .

٢- مبادئ وتعاليم المسيحية لم تختلف عن مبادئ وتعاليم الديانات الوثنية في تعاملها مع أتباع الديانات الأخرى . ولهذا لا يمكننا أن نجعل المسيحية من الديانات التي تدعو إلى تحقيق السلام والمحبة في العالم .

٣- هناك علاقة كبيرة بين الأعمال الإجرامية التي ارتكبها رجال الدين المسيحي ضد المورسكيين والكتاب المقدس ؛ وبخاصّة العهد القديم منه .

٤- الكتاب المقدس لم يهذب سلوك الأوروبيين ، بل زاد من همجيتهم وبربر يتهم ؛ من خلال حثه ودعوته إلى استعباد الأمم التي لا تدين بالمسيحية .

٥- يعد الفتح الإسلامي نعمة عظيمة على إسبانيا ؛إذ إنه أحدث ثورة حضارية كبيرة في جميع المجالات والميادين الاقتصادية والثقافية .

٦- محاربة الكنيسة للإسلام ؛كانت محاربة شاملة ، لم تقتصر على الدين الإسلامي كدين فقط بل تعدتها إلى المظاهر الثقافية الأخرى مهما كانت صغيرة أو بسيطة .ولكن أبدى المورسكيون مقاومة ورفضا للثقافة المسيحية ؛ واختاروا طريقة التقية كأحسن طريقة لمقاومة العقيدة المسيحية والمحافظة على الموروث الإسلامي .

٧- تعتبر محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة ضد المورسكيين في الأندلس من أبرز سمات العصور الوسطى الأوروبية ؛ ففيها أظهر الصليب حقده العظيم على الهلال .

٨- الأساليب التي استعملتها محاكم التفتيش ؛ أقل ما توصف به أنها لا تصدر إلا عن المجرمين الذين لا يشعرون بأي رحمة أو رأفة .

٩- فكرة طرد المورسكيين من الأندلس ؛ هي فكرة من وحي رجال الدين ، بعد أن فشلوا في تنصير الموريسكيين .

١٠- لم تكتف الكنيسة بطرد المورسكيين ؛ بل إنها تتبعتهم أثناء هجرتهم وقتلت مئات الآلاف منهم .

١١- خلفت طرد المورسكيين من الأندلس ، نتائج بالغة الأهمية في جميع النواحي ، كان أهمها ما تركته من آثار سلبية على سير الإحداث في العلاقات بين العالم الإسلامي والمسيحي .

١٢- يعتبر الإسلام الدين الوحيد في العالم الذي أوجد قانونا لحماية الأقليات الدينية ، ولم يعرف في تاريخه الطويل سياسة الاضطهاد أو أفران الغاز .

كما لا يجب أن أنهي القول ، قبل أن أقترح تحفيز الباحثين المسلمين إلى الإعتناء بالدراسات المتعلقة بالتاريخ المورسكي .لأن الفترة المظلمة التي مرت بالأمة المورسكية المسلمة ظلت مجهولة غير معروفة عند المسلمين . و الحمد لله أولا و أخيرا .

الفهارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس القرآن الكريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التسلسل	الآية	السورة	الرقم	الصفحة
٠١	لقَد كَفرَ الّذين قَالُوا ...	المائدة	١٧	
٠٢	قُل فَمَن يَملكُ منَ الله ...	المائدة	١٧	١٠٢
	لَقَد كَفرَ الّذينَ قَالُوا إنّ الله ...	المائدة	١٧	
٠٣	لَتَجدَنّ أَشَدّ النَّاسِ عَدَاوةً لِّلّذينَ آمَنُوا	المائدة	٨٢-٨٦	١٠٢
٠٤	قَالُوا يَا قَومَنَا إنَّا سَمعنَا...	الأحقاف		
	وَجَعَلنَا فِي قُلوبِ الّذينَ اتّبَعُوهُ ...	الحديد	٣٠	١٠٢
			٢٥	
٠٥				١٠٢
٠٦				
				١٠١
				١٠٢

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس العهد القديم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لتسلسل	الفقرة	العهد القديم	الإصحاح	الصفحة
٠١	فإن ملاكي يسير	خروج	٢٣:٢٣-٢٤	١٣
٠٢	احفظ ما أنا موصيك ...	خروج	٢٣: ٢٤- ٢٥	١٣
٠٣	من ذبح لآلهة غير الرب ...	خروج		١٨
٠٤	وقفَ موسى في بابِ...	خروج	٢٢:٢٠	١٩
٠٥	وأُعطي نعمةً لهذا الشعبِ...	خروج	١٣ :١٥-١٦	
٠٦	تكلّم في مسامعِ الشعبِ...	خروج	٣ :٢١-٢٢	١٩
	وفعل بنوا إسرائيل...	خروج	١١ :٢-٣	١٩-٢٠
	كلم بني إسرائيل...	عدد	١٢ :٣٥ -٣٦	
٠٧	كل ذكر من الأطفال ...	عدد	٣٣ :٥٠-٥٣ ٥٣	١٤
٠٨				
٠٩	فتجندو ا على مديان...	عدد		٢١
	حين تقرب من...	تثنية	٣١ :١٧	١٥
	وأما مدن هؤلاء..	تثنية	٣١:٧-١٢	١٣
١٠	متَى أتَى بِكَ الرَّب ...	تثنية	٢٠ :١٠-	
١١	وذلكَ النبيُ أوِ الحالمُ...	تثنية	١٥	١٣
١٢	تضرب سكانَ تلكَ المدينةِ ...	تثنية	١٤:١٣-١٥	
١٣	لا تقتل	تثنية	٢٠: ١٦-١٨	١٤
	إذَا وجدَ في وسطكَ ...	تثنية	٧ :١-٦	١٨

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

١٤	لم يبق شاردا....	يشوع	١٣:١٥	١٨
١٥	على خمسِ خشبٍ...	يشوع	١٣: ١٥-١٦	١٠
١٦	واضربوا كل نفس ...	يشوع	٥: ١٧	١٩
١٦	واخذوا المدينة	يـ	١٧: ٢-٦	
١٧	وامتلأت أرضهُم ...	شـ	١٠: ٣٩	١٦
١٨	فالآنَ أذهبِ واضرِب...	و	١١ :١٢	١٦
١٩	لم يستبقِ رجلاً ولا امرأةً...	ع	٦: ٢١-٢٢	
١٩	وضربَ الموآبيينَ ...		٢ :٨	
٢٠	وهربَ أرامَ من أمامِ...	إشعيا	١٥ :٣-٥	
٢١	فجمعَ داوودَ ...	صموئيل		
٢١	عبدي داوودَ الّذي حفظَ ...	الأول	٨: ٢-٤	
٢٢	فقالَ لهم إيليَا أمسكُوا ..	صموئيل	١٠: ١٨	
٢٣	يكافئنِي الرّبُ حسبَ بري...	الأول	١٢: ٢٩-٣١	
٢٤		صموئيل	١٤: ٨	
٢٤		الثاني		
٢٥		صموئيل		
٢٦		الثاني		
٢٧		صموئيل		
٢٨		الثاني		
٢٩		ملوك		
		الأول		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس العهد الجديد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

٠١	طوبَى لصانعِي السلامِ ...	متى	٥:٩	٠٨
٠٢	سمعتم أنه قيل عين بعين ...	متى	٤١-٥:٤٠	٠٨
٠٣	سمعتم انه قيل تحب ...	متى	٥: ٤٣-٤٤	٠٩
		متى		
٠٤	..الذين يأخذون بالسيف ...	متى	٢٦:٥٢	١٠
٠٥	ولا تظنوا أني جئت ...	مرقص	٥:١٠	١٠
٠٦	ثم قام من هنالك و مضى إلى ..	لوقا	٣٠-٠٧:٢٤	١١
٠٧	ألزموهم بالدخول	لوقا	٠٩:٢٣	
٠٨	من ليس معي ...	لوقا	١١:٢٣	٢٠
٠٩	إن كان أحدا...	لوقا	١٤:٢٥	٢٠
١٠	وقال لهم كيف يقولون ...	لوقا	٤٤-٢٠:٤٣	٢٠
١١	ولكني أقول لكم ...	يوحنا	٣٠-٠٦:٢٧	٠٩
١٢	و إن كان العالم يبغضكم ...	يوحنا	٢٠-١٥:١٨	٠٩
١٣	إن كان أحد لا يثبت ...	رسالة	١٦:١٥	٠٨
١٤	فإن جاع عدوك فأطعمه ...	بولس إلى أهل	٢١-١٢:٢٠	
١٥	باركوا الذين يضطهدونكم ...	رومية	١٥-١٤ :١٢	٢٠
		رسالة		١٠
		بولس إلى		
		أهل		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر والمراجع العربية

١ – القرآن الكريم على رواية ورش .

٢– ابن كثير ، أبي الفداء. تفسير القرآن الكريم . ط ٣ بيروت : دار الفكر ١٩٨٤ م

٣,– مؤلف مجهول . أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم . تحقيق : إبراهيم الأبياري . (دط) القاهرة : دار الكتاب المصري و بيروت : دار الكتاب اللبناني (دت) .

٤– عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله . فتوح أفريقية والأندلس . تحقيق : عبد الله أنيس طباع . (دط) بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٦٤ م .

٥– المقرئ ، أحمد بن محمد . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق : د / إحسان عباس .(دط) بيروت : دار صادر ١٩٦٨ م .

٦– القضاعي ، أبي عبد الله بن عبد الله بن أبي بكر . الحلة السيراء . تحقيق : حسين مؤنس . ط١ القاهرة : الشركة العربية ١٩٦٣ م .

٧– الطبري ، أبي محمد . تاريخ أمم الملوك . ط٣ بيروت : دار الكتاب العربي ١٩٩١ م .

٨– ابن الأثير . الكامل في التاريخ . ط٥ بيروت : دار الكتاب العربي ١٩٨٥ م

٩– . البداية والنهاية . (دط) بيروت : دار الفكر (دت) .

١٠–المراكشي ، ابن عذاري . البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب . تحقيق : رينجرت دوزي . ط١ المغرب : دار الثقافة ١٩٨٠ م .

١١ – عنان ، عبد الله محمد . دولة الإسلام في الأندلس . ط٣ القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦ م .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

١٢ – الحجري ، أحمد بن قاسم . ناصر الدين القوم الكافرين . تحقيق : محمد رزوق . (دط) الدار البيضاء : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٨٧ .

١٣– مؤنس ، حسين .فجر الأندلس . ط٢ السعودية : الدار السعودية بدون (دت).

١٤– التميمي، عبد الجليل . تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية.(دط) زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية المورسكية ١٩٩١ م.

١٥– الكتاب المقدس .ط١ مصر : دار الكتاب المقدس٢٠٠٣ م.

١٦– يحياوي، جمال .سقوط غرناطة .ط١ الجزائر: دار هومة٢٠٠٤ م .

١٧– أمين ، حسين أحمد. فضل الإسلام على الحضارة الغربية .ط١ (دم): مكتبة دبولي ١٩٨٣ م

١٨– القرضاوي ، يوسف. الأقليات الدينية والحل الإسلامي .ط٣ بيروت: المكتب الإسلامي ١٩٩٨ م.

١٩– أمين ، أحمد .ظهر الإسلام . ط٣ مصر : مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢ م

٢٠– كحيلة ، عبادة. تاريخ النصارى في الأندلس . ط١ (دم) (دن) .١٩٩٣ م.

٢١– العايب ، سلوى بلحاج صالح. المسيحية العربية وتطورها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري .ط١ بيروت : دار الطليعة ١٩٩٧ م.

٢٢– الجوزية، ابن القيم .أحكام أهل الذمة .تحقيق: يوسف أحمد بكري وشاكر بن توفيق العارودي. ط١ .

٢٣– متولي ، محمد علي . الإسلام والحضارة الغربية.ط١ (دم) : دار الفلاح ٢٠٠١ م.

٢٤– الميمي ، حسن . أهل الذمة في الحضارة الإسلامية .ط١ بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٨ م .

٢٥- الحجي ، عبد الرحمن علي .محاكم التفتيش وأساليبها . (دط) الجزائر : شركة الشهاب . (دت) .

٢٦- ـــــ الدولة العثمانية وقضية المورسكيين . (دط) زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية ١٩٨٩ م .

٢٧- الهندي ، رحمة الله. إظهار الحق . ط٢بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠٣ م.

٢٨- الغزالي، محمد . التعصب والتسامح بين المسيحية و الإسلام .(دط)مصر : دار الكتاب العربي (دت) .

٢٩- عبده ، محمد. الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية . (دط)الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب(دت) .

٣٠- رزوق ، محمد . الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧ م . ط٣ المغرب : إفريقيا الشرق ١٩٩٨ م .

٣١- أرسلان ، شكيب . خلاصة تاريخ الأندلس . (دط) بيروت : (دن) ١٩٣٠ م

٣٢- عثمان ، حافظ . الإسلام والصراعات الدينية . (دط) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ م.

٣٣- حمادي ، عبد الله . المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس . (دط) تونس : الدار التونسية للنشر و الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٩ م.

٣٤- المطوي ، محمد العمروسي . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب . (دط) لبنان : دار الغرب الإسلامي ١٩٨٢ م .

٣٥- الزركلي ، خير الدين . الأعلام : قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين و المستشرقين .ط٧ بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦٢ م .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

٣٦- بدوي ، عبد الرحمن. موسوعة المستشرقين. ط٣ بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤م.

٣٧- علي ، سيد أمير .مختصر تاريخ العرب .ترجمة عفيف البعلبكي .ط١ بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦١ م .

٣٨- بوشرب ، أحمد . مغاربة البرتغال خلال القرن السادس عشر .ط١ الرباط : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٩٦ م .

٣٩- اليسوعي، بولس إلياس. خلاصة الدين المسيحي. ط٢ بيروت : دار المشرق ١٩٨٧ م.

٤٠- محمود ، عبد الحليم . أوروبا والإسلام . (دط)بيروت : المكتبة العربية (دت) .

٤١- بارتون ،بروس وآخرون. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس .(دط) القاهرة : شركة ماستر ميديا ١٩٨٨ م.

٤٢- الشكعة ، مصطفى. المغرب والأندلس .ط١ بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦٢ م .

٤٣- العبادي، أحمد مختاري . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس .(دط) الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٧ م .

٤٤- اليسوعي ، هـ - بوتمان. الكنيسة والإسلام في العصر العباسي . (دط) بيروت : دار المشرق (دت).

٤٥- العودات، حسين . العرب النصارى عرض تاريخي . ط١ سوريا : الأهالي ١٩٩٢ م.

٤٦- المدني ، أحمد توفيق . حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (١٤٩٢ - ١٧٩٢م). (دط) الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بدون ذكر تاريخ الطبع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

٤٧- بشتاوي، عادل سعيد . الأمة الأندلسية الشهيدة .ط١ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠ م .

٤٨- ستودارد ، لوثرب . حاضر العالم الإسلامي .تعليق: شكيب أرسلان .(دط) القاهرة :عيسى البابي الحلبي ١٣٥٢ هـ .

٤٩- بيضون ، إبراهيم . الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة.ط٣ بيروت :دار النهضة ١٩٨٦ م .

٥٠- ابن منظور . لسان العرب . تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون .(دط) مصر : دار المعارف (دت) .

٥١- مسعود ، جبران .الرائد .ط٥ بيروت : دار العلم للملايين ١٩٨٦ م.

٥٢- الجوهري ، إسماعيل بن حماد . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية .تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار. ط٣ بيروت : دار العلم للملايين ١٩٨٤ م .

٥٣- البستاني، بطرس .دائرة المعارف.(دط) لبنان : مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان (دت) .

٥٤- أسعد ، حومد .محنة العرب في الأندلس .ط١ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠م.

٥٥- ـــــــ دراسات في التاريخ المورسكي الاندلسي . (دط) زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية المورسكية ١٩٩٣ م

المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية

١- بوازار ، مارسيل . إنسانية الإسلام . ترجمة : د/عفيف دمشقية .(دط) بيروت : منشورات الآداب ١٩٨٠ م.

٢- مونتوجومري . فضل الإسلام على الحضارة الإسلامية .(دط) (دم) : مكتبة الدبولي ١٩٨٣ م .

٣- قروم، جورج .تعدد الأديان وأنظمة الحكم : دراسة سيوسولوجية وقانونية مقارنة. (دط) (دم) : دار النهار ١٩٩٢ م .

٤- ارنولد، توماس . تراث الإسلام .ط٣ بيروت : دار الطليعة ١٩٧٨ م.

٥- إي –فوللر، جراهام و أو-ليسر، إيان .الإسلام والغرب . ترجمة: شوقي جلال ط١ القاهرة : مركز الأهرام ١٩٩٧ م

٦- هورتز ، أنطونيو دو مينيقير و بنثنت، برنارد .تاريخ مسلمي الاندلس : المورسكيون"حياة ...ومأساة أقلية". ترجمة: عبد العال صالح طه .ط١ قطر: دار الاشراق ١٩٩٨ م

٧- ستانوود كب. المسلمون في تاريخ الحضارة .ط٢ السعودية: الدار السعودية ١٩٨٢م

٨- بول ، ستانلي لان .قصة العرب في إسبانيا.ترجمة : علي الجارم .مصر : دار المعارف (دت) .

٩- فشر، هـ -أ-ل. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى .ترجمة : محمد مصطفى زيادة .(دط) القاهرة : دار المعارف (دت) .

١٠- بالنثيا، آنخل جنثاليث.تاريخ الفكر الاندلسي. ترجمة : حسين مؤنس .ط١ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٢٨ م.

١١- بروفنسال ، ليفي .حضارة العرب في الأندلس . ترجمة : ذوقان قرقوط.(دط) بيروت : مكتبة الحياة(دت) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

١٢- هارت ، مايكل . الخالدون .ترجمة : أنيس منصور .ط١ مصر : المكتب المصري الحديث ١٩٨١ م .
١٣- كيب ، جوزيف مارك .مدينة المسلمين في إسبانيا.ترجمة : د/ محمد تقي الدين الهلالي .ط٢ مصر : مكتبة المعارف ١٩٨٥ م .
١٤- لوك ، جون .رسالة في التسامح.ترجمة : د/ عبد الرحمن البدوي .ط١ لبنان :دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨ م.
١٥- بوتول ، جاستون. الحرب والمجتمع : تحليل إجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية.ترجمة : عباس الشربيني . ط٣ بيروت : النهضة العربية ١٩٨٣ م
١٦- لومبار، موريس . الاسلام في مجده الاول ٨-١١م . ترجمة وتعليق : إسماعيل العربي . ط١ الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٧٩ م.
١٧- جلوب ، جون بجون.إمبراطورية العرب .تعريب وتعليق: خيري حماد . ط١ بيروت : دار الكتاب العربي ١٩٦٦ م.
١٨- حتى ، فيليب .تاريخ العرب .ترجمة: د/ أدورد جورجي ود/ جبرائيل حبورج . ط٤ (دم) : دار الكشاف ١٩٦٥ م
١٩- لاند ، روم .إسبانيا شعبها وأرضها . ترجمة : طارق فودة . بدون طبعة القاهرة- نيو يورك: مؤسسة فرانكلين ١٩٦٥ م
٢٠- لوبون ، غوستاف. حضارة العرب .تعريب عادل زعيتر . ط٣ بيروت : إحياء التراث الاسلامي ١٩٧٩ م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

٢١- ديورانت ، وول وايريل.قصة الحضارة. ترجمة : فؤاد أندراوس وآخـــرون .ط١ بيروت : دار الجيل والقاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (دت).

٢٢- لوبي ، كارديك . المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهـــة الجدليـــة (١٤٩٢ -١٦٤٠ م) .ترجمة : د/ عبد الجليل التميمي .ط١ زغوان: المجلة التاريخية المغربية و الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٣ م.

المصادر والمراجع الأجنبية

1-Bourdon, albert-alan . histoire du Portugal. Paris 1958.

2-Charleslea, henry. The Moriscos of spain their conversion and explusion .v1 newyork : burt franklin1901

3- gousset , le cardinal. Theologie Morale.Paris: librairif victorle coffre 1890 .

4- M- DE GENOUD.SAINTE Bible .v4 paris 1838

٥-VILAR ,PIERRE .histoire de l'Espagne. Paris 1958

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المواضيع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء .....

شكر وتقدير.....

المقدّمة.....أ

الفصل الأول: الاضطهاد وصلته بالمسيحية

تمهيد:(في بيان المقصود بالاضطهاد).....٧

***المبحث الأول*: أسباب الاضطهاد** ٨

المطلب الأول: الأسباب الاقتصادية..... ٨

المطلب الثاني: الأسباب السياسية ٩

المطلب الثالث : الأسباب القومية.....١٠

المطلب الرابع: الأسباب الدينية ١١

***المبحث الثاني* : جذور الاضطهاد من خلال الكتاب المقدّس**.....١٣

المطلب الأول : النصوص الحاضّة على التسامح.....١٣

المطلب الثاني : النصوص الحاضّة على عدم التسامح.....١٨

الفصل الثاني : المورسكيون ومحاكم التفتيش

***المبحث الأول:* إسبانيا قبل الفتح الإسلامي**.....٢٩

المطلب الأول :إسبانيا قبل الفتح الإسلامي.....٢٩

المطلب الثاني الفتح الإسلامي لإسبانيا..... ٢٩

المطلبالثالث:معاملة الفاتحين للمسيحيين ٣١

المطلب الرابع: ازدهار الأندلس..... ٣٥

المطلب الخامس : سقوط الأندلس ٣٨

المبحث الثاني : **محاكم التّفتيش**..... ٤٠

المطلب الأول: نشأة محاكم التفتيش وتاريخها..... ٤٠

المطلب الثاني: إجراءات محاكم التفتيش..... ٤٥

الفرع الأول: التبليغ..... ٤٦

الفرع الثاني: التحقيق..... ٤٨

الفرع الثالث : الإدانة..... ٤٩

الفرع الرابع : التعذيب..... ٥٠

الفرع الخامس : المرافعة..... ٥١

الفرع السادس: الحكم ٥٣

المطلب الثالث أساليب في محاكم التفتيش..... ٥٣

الفرع الأول: التعذيب والقتل..... ٥٣

الفرع الثاني: الإكراه والمصادرة..... ٥٦

المطلب الثالث : شهادات علماء الغرب على وحشية محاكم التفتيش...٥٨

المبحث الثالث : أعمال محاكم التفتيش و دورها في اضطهاد المورسكيين ٦٠

المطلب الأول: التنصير والإكراه على تبديل الدّين..... ٦٠

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني : محاربة اللسان العربي ٦٧
المطلب الثالث : محاربة العادات والتقاليد الإسلامية..... ٧٥
المطلب الرابع: محاربة الشعائر الإسلامية..... ٧٨

الفصل الثالث : نتائج الاضطهاد

المبحث الأول: عملية طرد الموريسكيين..... ٨٧
المبحث الثاني : نتائج طرد الموريسكيين..... ٩٣
المطلب الأول : النتائج الاقتصادية والسياسية ٩٣
المطلب الثاني : زوال الإسلام من إسبانيا..... ٩٧
المطلب الثالث توتر العلاقة بين المسلمين والمسيحيين ٩٩
المطلب الرابع : اندثار معالم حضارية بزوال حضارة الإسلام عن الأندلس ١٠٠
المبحث الثالث: فقدان العالم للنموذج الإسلامي في نبذ الاضطهاد..... ١٠١
المطلب الأول : موقف الإسلام من المسيحية..... ١٠١
المطلب الثاني : حال النصارى تحت الحكم الإسلامي..... ١٠٤
المطلب الثالث : شهادات علماء الغرب على التسامح الإسلامي..... ١١٠
الخاتمة ١١٦
فهرس الآيات القرآنية..... ١٢٠
فهرس فقرات العهد القديم..... ١٢٢
فهرس فقرات العهد الجديد..... ١٢٣

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع..... ١٢٦
فهرس المواضيع..... ١٣٥

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية